

مجلة مجمع العلماء في دمشق

السنه ١٣٣٩ هـ الموافقة ١٩٢١ م

تشرين في دمشق مرة في شهر

ايلول وتشرين الأول سنة ١٩٢١ م

رمضان وشوال سنة ١٣٦٥ هـ

٠٠٠٠٠٠٠٠

دمشق

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي { في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري
وفي جميع الافطار ٤٠٠ " " }
الدفع مقدماً

مطبعة الترقى بدمشق



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

ابن حزم في (سير النبلاء)

« نشرت كتابي (ابن حزم الأندلسي ورسالة في المفاصلة بين الصحابة) في ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ [أيار ١٩٤٠ م] وكنت نشرت منه قبل ذلك فصلاً في مجلة الثقافة المصرية وآخر في مجلة التمدن الاسلامي الدمشقية ، ثم تليق بالبريد المضمون آخر عام ١٣٥٩ هـ منفلاً فيه رسالة خطية عنوانها : « ترجمة ابن حزم رحمه الله ، منقول من النبلاء للذهبي » وكلاماً آخر عرفت منه ان في خزنة صاحب الجلالة الامام يحيى حميد الدين نسخة من كتاب النبلاء بصنعاء ، وان وجيه المجاز الشيخ محمد نصيف لما علم باشتتالي بدراسة الامام ابن حزم حملته اريحته ونزله فكلف السيد محمد بن احمد المجري بنسخ ترجمة ابن حزم من النبلاء ثم أوصلها الي .

والرسالة الممدودة كتاب مستقل كما الفه الذهبي وقد قرى عليه وفي آخره سماعان احدهما بخطه كسبه بدمشق سنة ٧٣٤ والثاني كسبه بدمشق ايضاً ان جماعة سنة ٧٤٠ هـ فرأيت من الواجب — وللرسالة هذا الخطر — ألا أستأثر بها وان انشرها في مجلة المجمع العلمي العربي تكملاً لغايتها .

وانا اذ أشكر فضل الشيخ محمد نصيف وغيره على العلم لا ينبغي إلا ان ارفع الى صاحب الجلالة البنية على صنعات هذه المجلة رجائي ورجاء كثير من خدمة العلم ان يأمر بطبع هذا الكتاب النفيس فيبرد بذلك غلة المطاوع من رواد العلم ويحجي أثرأ قديماً ويضيف الى آثاره الجليلة هذه المحمدية الجديدة ، ويحقق امنية ليس احق بتحقيقها من الملك العالم المجتهد الفقيه . ودمشق تنتشط اذا امر جلالة فأرسل هذه النسخة النادرة المحلاة بخطه ونفها الى يميننا العلمي فيقوم باعادها للنشر ، ومن الحق ان تقوم دمشق بنشر أثر خرج من خزائنها وألفه في مدارسها ابنا وأحد مفاخرها الخالدة على وجه الدهر »

وهذه كلمة عن المؤلف الامام الذهبي وعن كتابه سير النبلاء أقدمها بين يدي الرسالة :

شهد القرن الثامن للهجرة علماء محدثين وحفاظاً أعلاماً ، استأثر بالاجماع منهم أربعة كان اليهم المرجع ، وعليهم المعول ، وانعقدت لهم الامامة في الحديث ومعرفة الرجال : وهم الحافظ المزي والبرزالي وثقي الدين السبكي و مترجنا شمس الدين الذهبي . وقد كان مترجموه من جلة العلماء كتاج الدين السبكي والجلال السيوطي والحافظ ابي المحاسن الحسيني الدمشقي وصاحب (فوات الوفيات) و خليل ابن ابيك الصفدي صاحب (نكت العميان في نكت العميان) وغيرهم ، فأطبقوا جميعاً على أنه حافظ

عصره الذي تشد إليه الرجال من مختلف الاقطار . وناهيك بشهادة هؤلاء الحفاظ المحدثين الأجلاء .

مولده ونسبه

كان مولد شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز التركياني بدمشق سنة ٦٧٣ واصله من ميفارقين واشتهر بالذهبي^(١) ونعته الحافظ الحسيني بـ « شيخ المحدثين قدوة الحفاظ والقراء محدث الشام ومؤرخه ومفيده »^(٢)

طلبه ونبوغه

بدأ بطلب الحديث وله ثمان عشرة سنة ، فسمع على شيوخ الشام ومصر ومنهم شيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، وكتب هذا « شديد التحري في الإسماع »^(٣) ، لم يقبله حتى اختبره في معرفة الرجال وسأله أشياء اجابه عنها بسداد . ثم جاب مدن الشام يلتقي فيها الشيوخ فسمع بدمشق وبلبك وحص وحماة وحلب وطرابلس ونابلس والرملة والقدس ورحل الى الاسكندرية ، ببليس والقاهرة ومكة^(٤) حتى صار « إمام الوجود حفظاً وشيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل شئ »^(٥) فرسخت قدمه وذاعت شهرته وضرب بحفظه المثل .

وأقام بدمشق بقعده فيها العلماء من طلاب الحديث من كل قطر ومصر وتنهل عليه الأسئلة من البلدان فيجيب عليها من حفظه . وكان سيف القراءات عالماً جامعاً . قرأ القرآن وأقرأه على الوجوه السبعة .

شيوخه وتلاميذه

بلغ عدد الذين ذكرهم في (معجم أشياخه) ثلاثمائة شيخ والـف شيخ^(٦) . وقد حفظت لنا كتب الطبقات بعض الأعلام المشهورين ممن قرأ عليهم وأقرأهم ،

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٦ (دمشق ١٣٢٧ هـ) (٢) نكت الهميان ص ٢٢٢ قأ بعد
وشذرات الذهب ٦ : ١٥٢ (٣) السبكي في طبقات الشافعية ٥ : ٢١٦ (٤) فوات الوفيات ٢ : ١٨٣
وفيها وفي طبقات الشافعية ذكر لبعض شيوخه المشهورين فانظرهم ثم .

جاء في شذرات الذهب : « أجاز له ابو زكريا ابن الصيرفي والقطب ابن ابي عصرون ، والقاسم الاريلي . سمع بدمشق من عمر بن القواس واحمد بن هبة الله بن عساكر ويوسف بن احمد الفسولي وغيرهم ، وبيعلبك من عبد الخالق بن علوان وزينب بنت عمر بن كندي وغيرهما ، وبمصر من الابرقوهي وعيسى بن عبد المنعم بن شهاب وشيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، وسمع بالاسكندرية من ابي الحسن علي بن احمد الغرافي وابي الحسين يحيى بن احمد بن الصواف وغيرهما ، وبمكة من التوزي وغيره ، وبنابلس من العماد بن بدران ^(١) »

« وأجاز له خلق من اصحاب ابن طبرزد والكندي وحنبل وابن الحرستاني وغيرهم وخرج لجماعة من شيوخه وجمع القراءات السبع على الشيخ عبد الله بن جبريل المصري نزيل دمشق ^(٢) » .

وقد حمل عنه الكتاب والسنة وعلم الرجال خلائق لا يحصون كثرة ، وحسبك ان منهم التاج السبكي صاحب طبقات الشافعية الكبرى ، والسيوطي المؤلف المكثرة ، وانظر قدره عندهما في ترجمتهما له فيما الفا من كتب الرجال . ومنهم الصفدي صاحب « نكت الهميان » واليك شهادته فيه في كتابه نكت الهميان ، قال :

« اجتمعت به واخذت عنه وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ولم أجد عنده من جمود المحدثين وكونه النقلة ، بل هو فقيه النظر له درة بأقوال الناس ، ومذاهب الائمة من السلف وارباب المقالات . وأعجبي ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثاً يورده حتى يبين ما فيه من ضعف متن او ظلام إسناد أو طعن في رواية ، وهذا لم أر غيره يعاني هذه الفائدة فيما يورده . ^(٣) » وقد قرأ عليه الصفدي هذا من تاريخ الاسلام المغازي والسيرة النبوية الى آخر ايام الحسن رضي الله عنه ، وجميع الحوادث الى آخر سنة سبعائة .

(١) شذرات الذهب ٦ : ١٥٤ (٢) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٤٣ (٣) نكت

الهميان في نكت الهميان ص ٢٤٢

عمله ووفاته وراثته

ولي في حياته « مشيخة الظاهرية قديماً ومشيخة النفيسية والفاضلية والتكزية وأم الملك الصالح » حتى اذا كان عام ٧٤١ كلف بصره فانقطع عن التأليف وأكب على التدريس الى ان وافاه اجله « ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ٧٤٨ »^(١)

روى التاج السبكي في طبقاته ان وفاة الذهبي كانت « بالمدرسة المنسوبة لأُم الصالح »^(٢) في قاعة سكنه ورآه الوالد (يعني نقي الدين السبكي) رحمه الله قبل المغرب وهو في السياق وقال : كيف تجددك ؟ فقال : في السياق ، ثم سأله : أدخل وقت المغرب ؟ فقال له الوالد : ألم تصل العصر ؟ فقال : بلى ولكن لم أصل المغرب الى الآن . وسأل الوالد رحمه الله الجمع بين المغرب والعشاء نقدياً فأفناه بذلك ، ففعله . ومات بعد العشاء قبل نصف الليل ودفن بباب الصغير ، حضرت الصلاة عليه ودفنه .^(٣) « وهكذا انقضت حياة حافلة بالعلم والتعليم والدين والنقى . فبكاه العلم وأهله ، وبكته المدارس وحلقات التدريس ، وفقدته بيوت الكتب التي طالما ملأها بالمفيد الممتع من مصنفاته في علوم الكتاب والسنة والشرعية . وهذه ابيات مما رثاه به تلميذه التاج السبكي :

من للحديث وللسارين في الطلب	من بعد موت الامام الحافظ الذهبي
من للرواية والاختبار بنشرها	بين البرية من عجم ومن عرب
من للدراسة والآثار يحفظها	بالنقد من وضع اهل الغي والكذب
من للصناعة يدري حل معظمها	حتى يريك جلاء الشك بالريب
هو الامام الذي روت روايته	وطبق الأرض من طلابه النجب

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ (٢) هي على عين المحدر في زقاق المحكمة قبيل آخره وفي محلها اليوم دار يدير ودار تقي الدين ولا تزال معالم المدرسة ظاهرة عليهما - كذا أخبرني أحد الطلبة ، شأنها في ذلك شأن غيرها من عشرات المدارس التي آوت غرفها كبار العلماء والحفاظ والقراء والعقلاء . ومن هذه الغرف خرجت إلى أقطار العالم آلاف الكتب النفيسة التي انتفع بعلمها واهتدى بهديها الملايين من البشر

(٣) طبقات الشافعية

ثبت صدوق خبير حافظ يقظ في النقل اصدق انباء من الكتب
الله اكبر ما أقرا وأحفظه من زاهد ورع في الله مرثب^(١)
شهرته العلمية ومنزله بين الحفاظ

وبعد فالذهبي احد مفاخر دمشق على وجه الدهر ، جعل منها طول حياته
محطاً «يرحل اليه من سائر البلاد وتناديه السؤالات من كل ناد»^(٢) فهو واحد
من أولئك الأعلام الذين ساهموا في بناء مجدها العلمي العظيم وصاروا أمنية المتحني
والغاية التي يتطلع إليها كل طامح : حكي عن شيخ الاسلام ابي الفضل بن حجر
انه قال : « شربت ماء زمزم لأصل الى مرتبة الذهبي في الحفاظ »^(٣)

وجعله السيوطي احد اربعة كان المحدثون في عصره عيالاً عليهم في الرجال
وسائر فنون الحديث وهم : المزي والذهبي والعراقي وابن حجر . « وقد قارن حافظ
الشام ابن ناصر الدين بين الذهبي والبرزالي والمزي فحكم للمزي بالتفوق في معرفة
رجال طبقات الصدر الأول ، وللبرزالي في العصرين ومن قبلهم من الطبقات القريبة
منهم ، وللذهبي في الطبقات المتوسطة بينهما تأييداً لقول بعض مشايخه . علي ابن
الأهواء قلما تغلب على المزي والبرزالي في تراجم الناس بخلاف الذهبي »^(٤)

مؤلفاته

عاش خمساً وسبعين سنة ترك خلالها نحواً من مئة مصنف جمعت من أسمائها ستة
وثمانين ، بعضها مشهور متداول كثير منه النفع وعظمت اليه الحاجة .
قرأت مسارد تأليفه في المصادر التي ترجمت له ، قرأت أكثرها في الحديث
ورجاله وما بقي منها في التاريخ . وأقصد بالتاريخ هنا : فن التراجم الذي برع فيه
العرب براعة ما بعدها غاية ، وتفنتوا فيه فنوناً شتى . أما مؤلفاته التي ضمنها ما « جرح
(١) اختار هذه الايات السيوطي في ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٤٩ وانظرها مختارة بقلم ناظمها في
طبقات الشافعية ٢١٩:٥ (٢) كلمة السبكي (٣) ذبول تذكرة الحفاظ ص ٣٤٨ (٤) ذيل
تذكرة الحفاظ ص ٣٥ الحاشية

وعُدل وفرَّع وصحح وعلل واستدرك وأفاد وانتقى واختصر من تأليف المتقدمين والمتأخرين^(١) « فقد حوت علماً كثيراً وتيسيراً على العلماء والطلبة ، وأشير هنا الى ان من اطولها تاريخه الكبير المسمى بتاريخ الاسلام في عشرين مجلداً^(٢) ، طالعاه الحافظ الزملي في جزءاً جزءاً حتى أنهاء فشهد له بالجلالة^(٣) ولعله اعظم مؤلفاته الكبار في التاريخ على الإطلاق .

وبليه في الضخامة (سير النبلاء) وهو ما نحن بصدد نشر جزء منه اليوم ، والذي يؤخذ من الذين ارحوا الذهبي ان (النبلاء) مختصر من تاريخه الكبير^(٤) والذي اميل اليه انه انتقى تراجم من التاريخ الكبير فجمعها في سير النبلاء . والذهبي نفسه تفنن في الاستفادة من تاريخه الكبير فاختصره على عدة مرات ، جاء في شذرات الذهب في صدد مؤلفاته : « منها تاريخ الاسلام ، ومختصر سير النبلاء في عدة مجلدات كثيرة ، ومختصر العبر في اخبار من غير ، ومختصر آخر سماه الدول الاسلامية ومختصره الصغير المسمى بالاشارة ومختصره ايضاً وسماه الاعلام بوفيات الاعلام^(٥) » والذهبي في هذا الفن من التاريخ يكاد لا يجاريه احد وكتبه في الرجال على اختلاف فنونها لا يستغني عنها باحث اليوم .

واليك جريدة مؤلفاته التي جمعها من مصادر مختلفة^(٦) ، ولا بد من الاشارة الى انه قد يكون فيها اسمان لكتاب واحد ، كل مصدر يذكره باسم ، كما ان اكثر ما قصر على التراجم هو - في رأبي - جزء من التاريخ الكبير على ما سيمر بك اذا بلغت الكلام على (سير النبلاء) ولعل في غير التراجم ما يدخل ايضاً في هذا الباب :

- (١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ (٢) المصادر السابقة وكشف الظنون ومنه اجزاء في الخزانة الاحمدية بجلد (٣) فوات الوفيات (٤) كشف الظنون (٥) منه نسخة رأيتها في دار الكتب الظاهرية وعليها سماع بخط الذهبي نفسه كتبه سنة ٧٣٥ هـ رقمها : مجموعات ١١ / ١١٦
(٦) فوات الوفيات ٢ : ١٨٣ ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ ، شذرات الذهب ٦ : ١٥٢ ، طبقات الشافعية للسبكي ٥ : ٢١٦ فما بعده ، نكت الهميان ص ٢٢٢ ، كشف الظنون ، قاموس الاعلام ٥٠ وغيرها .

- | | |
|--|------------------------------------|
| ٢٣ اختصار وفيات المنذري والشريف النسابة | ١ آداب حملة العلم |
| ٢٤ الاصابة في تجريد اسماء الصحابة | ٢ أحاديث الصفات |
| ٢٥ الاعلام والتجريد في اسماء الصحابة | ٣ أحاديث مختصر ابن الحاجب |
| [لعلها واحد] | ٤ أخبار السد |
| ٢٦ الإمامة الكبرى | ٥ = أبي مسلم الخراساني |
| ٢٧ تاريخ الاسلام (عشرون مجلداً) | ٦ اختصار تاريخ الخطيب (جزءان) |
| ٢٨ التاريخ المحتع (ستة اجزاء) | ٧ = تاريخ ابن السمعاني |
| ٢٩ تاريخ النبلاء (الاكثر انه سير النبلاء عينه) | ٨ = = ابن عساكر (عشرة اجزاء) |
| ٣٠ التبيان في مناقب عثمان | ٩ = = نيسابور |
| ٣١ التجريد في اسماء الصحابة (لعله الذي مر) | ١٠ = = تقويم البلدان لصاحب حمزة |
| ٣٢ تحريم الأدبار (جزءان) | ١١ = = سنن البيهقي (خمسة اجزاء) |
| ٣٣ تذكرة الحفاظ (اربعة اجزاء) | ١٢ = = كتاب الاطراف (جزءان) |
| ٣٤ تذهيب التهذيب للكمال (ثلاثة اجزاء) | ١٣ = = كتاب البعث للبيهقي |
| ٣٥ ترجمة السلف | ١٤ = = الجهاد لابن عساكر |
| ٣٦ التلويح بمن سبق ولحق | ١٥ = = جواز السماع لجعفر الادفوي |
| ٣٧ التمسك بالسنن | ١٦ = = الرد على الرافضة لابن تيمية |
| ٣٨ تنقيح احاديث التعليق لابن هوري | ١٧ = = الزهد |
| ٣٩ توقيف اهل التوفيق على مناقب الصديق | ١٨ = = سلاح المؤمن في الادعية |
| ٤٠ الثلاثين البلدية | ١٩ = = العلم لابن عبد البر |
| ٤١ جزء صلاة التيميم | ٢٠ = = الفاروق لشيخ الاسلام |
| ٤٢ = في الشفاعة | الانصاري (مع اختصار وتهذيب) |
| ٤٣ جزءان في صفة النار | ٢١ اختصار كتاب القدر للبيهقي |
| ٤٤ جزء في فضل آية الكرسي | ٢٢ = = المستدرک للحاكم (جزءان) |

٦٧ اللباس	٤٥ دعاة المكروب
٦٨ انحراف في اسماء رجال الكتب الستة	٤٦ دوام النار
(في ذيل تذكرة الحفاظ : المجرّد)	٤٧ دول الاسلام
٦٩ مختصر ذيل ابن الدثيني	٤٨ الروح والادجال في بقاء الدجال
٧٠ = في القراءات	٤٩ الزلازل
٧١ مسألة السماع	٥٠ الزيادة المضطربة
٧٢ مسألة الغيب	٥١ سير اعلام النبلاء
٧٣ المستحلى اختصار المحلى	٥٢ سيرة الخلاج
٧٤ المستدرك على مستدرك الحاكم	٥٣ طبقات الحفاظ
٧٥ المشتبه في الأسماء والأنساب	٥٤ = القراء (وسماه القراء الكبار
والكنى والالقب	على الطبقات والأعصار)
٧٦ معجم أشياخه وهو ١٣٠٠ شيخ	٥٥ طرق احاديث النزول
(كبير وأوسط وصغير)	٥٦ العباب في التاريخ
٧٧ المعجم المختص	٥٧ العبر في اخبار البشر
٧٨ المتقنى في الضعفا	٥٨ = = خبر من غير (لعله ما قبله)
٧٩ المقتنى في الكنى	٥٩ العرش
٨٠ من تكلم فيه وهو موثق	٦٠ العلو
٨١ الموت وما بعده	٦١ فتح المطالب في اخبار علي بن ابي طالب
٨٢ ميزان الاعتدال (ثلاثة اجزاء)	٦٢ فضل الحج وافعاله
٨٣ نبأ الدجال	٦٣ قض نهارك بأخبار ابن المبارك
٨٤ نعم السحر في سيرة عمر	٦٤ الكاشف (اختصار التذهيب)
٨٥ نقض الجعبة في اخبار شعبة	٦٥ الكبائر
٨٦ هالة البدر في عدد اهل بدر	٦٦ كسروثن رتن الهندي ؟

هذا وقد أعجبتني في الدلالة على براعته في فنه كلمة السبكي اذ قال فيه : « كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها اخبار من حضرها . » كذلك كان رحمه الله .

شيء من نظمه

لعل من تمام الصورة ان نعرض ما عرضه مترجمه من شعره ، فلامفر لك من أن تجد في كتب الرجال عندنا آخر كل ترجمة وان لم يكن صاحبها شاعراً قولهم : ومن شعره . وقد حلالي أن أحبي هنا هذا التقليد احتراماً لترجمنا الذي كان أحد زعمائه الكبار . كان شعره رحمه الله شعر فقيه تغلب فيه آثار صنعه ، ولا غرابة في ذلك ، فأشد شيء أنراً في المرء ما وقف حياته ليلها ونهارها على الاشتغال فيه : قال التاج السبكي انشدنا شيخنا الذهبي من لفظه لنفسه :

تولى شباب كأن لم يكن وأقبل شيب طيننا تولى
ومن عاين المنفى والنقل فما بعد هذين الا المصلى ^(١)

وانشدنا لنفسه وارسل بها معي الى الوالد (يعني نقي الدين بن السبكي) رحمه الله وهي فيما أراه آخر شعر قاله لأن ذلك كان في مرض موته ، قبل موته بيومين او ثلاثة :

نقي الدين يا قاضي المالك	ومن نحن العبيد له وانت مالك
بلغت المجد في دين ودنيا	ونلت من العلوم مدى كمالك
ففي الاحكام أقضانا علي	وفي الخدام مع أنس بن مالك
وكابن معين في حفظ وتقد	وفي الفتيا كسفيان ومالك
ونغر الدين في جدل وبحت	وفي النحو المبرد وابن مالك
وتسكن عند رضوان قريباً	كما زحزحت عن نيران مالك

لتعطي في اليمين كتاب خير ولا تعطي كتابك في شمالك
 تشفع في أناس في فراء لتكسوم ولو من رأس مالك
 وذكر بعدها آياتاً على هذا النمط تتعلق بمدحي لم أذكرها وختمها بقوله :
 ولذهبي إيدلال الموالي على المولى بحلمك واحتمالك^(١)
 وله منظومة في المدلسين انظرها في الطبقات المذكورة (٥ : ٢١٨)
 ماخذ العلماء عليه :

من الواجب ان نذكر هنا ما اخذه عليه بعض العلماء : فقد ذهبوا الى انه يقع
 أحياناً فيمن خالفه وأحياناً يطوي ذكره أو لا يوفيه حقه ، فإذا كان المترجم حنبلياً
 أفاض في تقييده . ومعاصروه أدري بنصيب المبالغة من هذا الحكم ، إلا أنني أرى
 من الطرافة ان نقل كلام تلميذه السبكي صاحب الطبقات الذي قدمنا لك إعجابه
 به ورتائه له . ولعل القارئ لا ينسى ان السبكي أيضاً شديد الميل والعصبية الى
 الشافعية قال : « وكن . . شديد الميل الى آراء الحنابلة ، كثير الازراء بأهل
 السنة الذين اذا حضروا كانت ابو الحسن الأشعري فيهم مقدم القافلة ، فلذلك
 لا ينصفهم في التراجم ، ولا يصفهم الا وقد رغم منه أنف الراغم : صنف التاريخ الكبير
 وما أحسنه لولا تعصب فيه^(٢) »

* * *

« وقد انتقده على خطته في تراجم الناس انتقاداً مراراً الحافظ ابن المرباط محمد بن
 عثمان الغرناطي والتاج ابن السبكي ونسباه الى التعصب المفرط ولا تخلو خطته في
 التراجم من ذلك لا سيما في تراجم الحشوية ومخالفهم ، لبعده عن المعقول والعلوم
 النظرية واكتفائه بالرواية والسماع كما هو شأن غالب الرواة المتصرفين الى السماع
 والرواية من صغرهم قبل النظر في مبادي العلوم ساعده الله . وقال ابن الوردي في
 تاريخه : « واستعجل قبل الموت قترجم في تواريخه الأحياء المشهورين بدمشق وغيرها

واعتمد في ذكر سير الناس على احداث يجتمعون به وكانت في أنفسهم شي من الناس فأذى بهذا السبب في مصنفاته أعراض خلق من المشهورين^(١) . اهـ
هذا قولهم فيه ، وقلم أرخ مؤلف لمعاصريه إلا أكثر فيه الكلام . والمرء يخضع للضعف البشري حين يتكلم على من له معهم العلائق ، وهو متأثر لا شك برضاه وغبضه على رغبة ، مها اجتهد في الانصاف ؛ وانما يؤاخذ الله المرء بنية وهو بعد يخطئ ويصيب . وهؤلاء الذين انتقدوه يخالفونه فيما ذهب اليه من مذهب ، فمن ثمة كان رأيهم فيه موضع نظر . وما أكثر من كان عرضة للاتهام بعداء اهل السنة كما أراد إصلاحاً ، أو نبذاً لبدعة شائعة ، أو نقداً لمخطئ ، تعقد فيه العامة .

قيمة هذه الرسالة من سير النبلاء :

سير النبلاء^(٢) كما في غالب المصادر عشرون مجلداً ، ذكره حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون فقال : « هو من جملة ما اختصره من تاريخه الكبير في نحو عشرين مجلداً مرتباً على التراجم بحسب الوفيات وله عليه ذيل في مجلد . وذيله ايضاً الحافظ نقي الدين محمد بن احمد الفامي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ » ولصاحب « نكت الهميان » كلمة في التعريف به تفيدنا في معرفة الصورة التي رتب فيها الذهبي هذا الكتاب قال : « وله في تراجم الأعيان لكل واحد مصنف قائم الذات مثل الائمة الاربعة ومن جرى مجراهم لكنه أدخل الكل في تاريخ النبلاء^(٣) »
فعلى هذا يكون سير النبلاء مجموعاً من كتب كثيرة عددها يساوي عدد المترجمين فيه ، وإذا تكون رسالتنا التي ظفرنا بها عن ابن حزم أحد هذه الكتب ، وبه نعرف نسق هذا الكتاب الجليل في جزء مهم منه .

قابلت هذه الرسالة بما في تذكرة الحفاظ للمؤلف نفسه عن ابن حزم ، فوجدت خلافاً يسيراً

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ الحاشية . (٢) وقد يسمى سير اعلام النبلاء ، وتسميه بعض

المصادر : تاريخ العلماء والنبلاء (فوات الوفيات) وبعضها : تاريخ النبلاء : « نكت الهميان وفوات الوفيات »

(٣) هذه الكلمة نفسها في فوات الوفيات

في الترتيب وتفاصيل زائدة ، رأيت أسلوب أهل الحديث في رسالتنا هذه أظهر ، وفهم فيها أغلب . فستعرف منها أعلى سند عند ابن حزم وأنزل سند ، وأجود سند ، ولا يدع الذهبي أن يذكر لنا سنده إلى ابن حزم . ثم النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث . فتغيبط إذ نرى أعلام الحجاز والعراق والشام والاندلس وأحياناً مصر والمغرب في سند واحد وهو شيء طريف حقاً .

وفيه بعض أشعار لم أجدها في مصدر أصلاً على كثرة المصادر التي اطلعت عليها حين دراستي لابن حزم ، وسأشير إلى ذلك إذا وصلت إليه .

أما المزية الظاهرة لهذه الرسالة فهي في حفظ كثير من أسماء مؤلفات ابن حزم فقد ذكر منها نحو السبعين على حين لم استطع أن أجمع في كتابي عن (ابن حزم) أكثر من ثلاثة وخمسين كتاباً وبعضها لا ذكر له في هذه السبعين ، وهي بين كتاب ضخيم يبلغ خمسة عشر ألف ورقة وجزء قد لا يعدو الأوراق . والذي يدعو إلى الغرابة أن يكون بين هذه المؤلفات خمسة عشر في الطب خاصة .

ويستطرد الذهبي في رسالته هذه فيذكر كلاماً نفيساً في الاجتهاد والنقل والرياء وأنه داء النقص والتجارب الاستحياء والواقفين والمجاهدين . . . فيبدو لنا جديداً في أسلوبه يعني بعض العناية بالتحليل النفسي والمناقشة المنطقية .

ويؤخذ عليه ما يؤخذ على أكثر مؤلفات عصره : شيء من الفوضى في الترتيب وتداخل في الموضوعات لا يصل إلى حد تشتت الذهن ، إلا أنه في ذلك هنا خير منه في تذكرة الحفاظ . وعدد شيوخ ابن حزم في تذكرة الحفاظ أوفى . وهذا أوان الشروع في نشر الرسالة : ^(١)



(١) مزية النسخة التي استنسخها لي الشيخ محمد نصيف أنها عن نسخة كتبت في عصر المؤلف وقرئت عليه وعليها خطه . إلا أنها كثيرة التصحيف وفيها نقص في بعض المواضع وقد توقفت إلى وجه الصواب فيها في غير صعوبة ، لأن كثيراً من المصادر التي قل عنها الذهبي مبسورة لنا وساعدني على ذلك اشتغالي السابق بالموضوع ، فأنا إذاً لا أشير إلا إلى القليل من الخطأ في الأصل . وقد قسمت الرسالة إلى موضوعات صغيرة جعلتها بين معقوتين []

تموذج من خط الذهبي صاحب سيرة النبلاء

سماع بخط الذهبي نفسه على كتابه (الإلهام بوفيات الأعلام)

المفوط بدار الكتب الظاهرية (مجموع ١١/١١٦)

سمع الكتاب علي لفظي كاتبه الأمير الفاضل ناصر الدين
أبو الفوارس محمد طولوبغا السيفي والقاضي الإمام شرف
الدين عبد الحميد بن محمد الزريراني والإمام شهاب الدين
محمد بن أبي الشرجاني رحمة الله عليهم من تلامذة سيرة
وكتبه محمد بن أحمد بن عثمان عفا الله عنه وصح بالمدرسة الصدرية

ونصه : سمع الكتاب علي من لفظي كاتبه الأمير الفاضل ناصر الدين أبو الفوارس
محمد بن طولوبغا السيفي والقاضي الإمام شرف الدين عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد الزريراني
والإمام شهاب الدين أحمد بن محمد بن سلمان ابن الشرجاني في جمادى الآخرة سنة خمس
وثلاثين وسبع مائة .

وكتب محمد بن أحمد بن عثمان عفا الله عنه وصح بالمدرسة الصدرية .



ترجمة ابن حزم منقولة من سير النبلاء للذهبي

الحمد لله

[نسه ومولده]

ابن حزم الأوحـد البحر ذو الفنون والمعارف أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان^(١) بن حرب الأموي المعروف بـيزيد الخير نائب أمير المؤمنين أبي حفص عمر على دمشق ، الفقيه الحافظ المتكلم الأديب الوزير الظاهري صاحب التصانيف .

وكان جده يزيد مولى للأمير يزيد أخي معاوية ، وكان جده خلف ابن معدان هو أول من دخل الأندلس في زمن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل .

ولد أبو محمد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة .

[شيوخه وتلاميذه]

وسمع في سنة أربعمائة وبعدها من طائفة منهم يحيى بن مسعود بن وجه اللجنة صاحب قاسم بن أصبغ فهو أعلى شيخ عنده . ومن أبي عمر أحمد بن

(١) في الأصل بن سفيان والتصحيح عن ارشاد الأديب وتذكرة الحفاظ .

محمد الجسور وبونس بن عبد الله بن مغيث القاضي وحمام^(١) بن أحمد القاضي
ومحمد بن سعيد بن نبات وعبد الله بن ربيع التميمي وعبد الرحمن بن عبد الله
ابن خالد وعبد الله بن محمد بن عثمان وأبي عمر أحمد بن محمد الطلمنكي وعبد الله
ابن يوسف بن ناجي وأحمد بن قاسم بن أصبغ . وبنزل الى أن يروي عن
أبي عمر بن عبد البر وأحمد بن عمر بن أنس العذري ، وأجود ما عنده من
الكتب سنن النسائي مجمله عن ابن ربيع عن ابن الأحمر عنه^(٢) ، وأنزل ما عنده
صحيح مسلم بدنه^(٣) وبينه خمسة رجال ، وأعلى ما رأيت له حديث بينه وبين
وكيع فيه ثلاثة أنفس .

حدث عنه ابنه أبو رافع الفضل وأبو عبد الله الحميدي وولد القاضي
أبي بكر [بن] العربي وطائفة ، وآخر من^(٤) روى عنه مروياته بالإجازة
أبو الحسن^(٥) شريح بن محمد .

[نشأته ونبوغته]

نشأ في تنعم ورفاهية ورزق ذكاء مفرطاً وذهناً سيالاً وكتباً نفيسة
كثيرة . وكان والده من كبراء أهل قرطبة عمل الوزارة في الدولة العامرية
وكذلك وزير أبو محمد في شببته . وقد مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر

(١) في الأصل : جهام . والتصحيح عن الصلة لابن بشكوال ص ١٥٦ ورقم الترجمة ٢٤٧
(٢) يعني عن النسائي . (٣) يعني : بين مسلم وبينه . (٤) في الأصل :
وآخرين . (٥) في الأصل أبو الحسن بن شريح والتصحيح عن تذكرة الحفاظ إذ جاء ذكره في
حديث يرويه الذهبي عن أبي القاسم أحمد بن يزيد القاضي عن أبي الحسن شريح بن محمد الرميني هذا عن
ابن حزم . (٣٢٩ : ٣)

وفي المنطق وأجزاء الفلسفة فأثرت به تأثيراً ليته سلم من ذلك ، ولقد وقفت له على تأليف يحض فيه على الاعتناء بالمنطق وتقدمه على العلوم فتأملت له : فإنه رأس في علوم الإسلام ، متبحر في النقل ، عديم النظير على ييس فيه وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول . قيل إنه تفقه أولاً للشافعي . ثم أداه اجتهاده الى القول بنفي القياس كله : جليه وخفيه والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث ، والقول بالبراءة الأصلية واستصحاب الحال . وصنف في ذلك كتباً كثيرة وناظر عليه وبسط لسانه وقلمه ، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب بل فحجج^(١) العبارة وسب وجدّ ع^(٢) فكان جزاؤه من جنس فعله : بحيث أنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة وهجروها ونفروا منها وأحرقت في وقت ، واعتنى بها آخرون من العلماء وفتشوها انتقاداً واستفادة وأخذوا موأخذة ، ورأوا فيها الدرائث من مزوجاً في الرصف بالخرز الممين ، فتارة يطربون ومرة يعجبون ومن تفرد بهزؤون . وفي الجملة فالكمال عزيز ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان ينهض بعلوم جمة ويحيد النقل ويحسن النظم والنثر وفيه دين وخير ، ومقاصده جميلة ومصنفاته مفيدة . وقد زهد في الرياسة ولزم منزله مكباً على العلم ، فلا تغلو فيه ولا نجفوا عنه ، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار :

(١) فحجج : تكبر . ولعل (في) ساقطة قبل كلمة : العبارة (٢) جدعة تجديماً : قال له : (جدعاً لك) والجدع الحبس وقطع الأنف أو الأذن أو اليد - انعاموس

قال أبو حامد الغزالي : « وجدت في أسماء الله كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه »
 وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد : « كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار . أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليقه أربعائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ^(٢) . »

قال أبو عبد الله الحميدي : « كان ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، متفتناً في علوم جمة ، عاملاً بعلمه ، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء ومعرفة الحفظ وكرم النفس والتدين . وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير جمعته على حروف المعجم . »

[تركه الوزارة وإقباله على العلم]

وقال أبو القاسم صاعد : « كان أبوه أبو عمر من وزراء المنصور محمد ابن أبي عامر مدير دولة المؤيد بالله بن المستنصر المرواني ثم وزير للمظفر ، ووزير أبو محمد المستظهر عبد الرحمن بن هشام ثم نبذ هذه الطريقة وأقبل على العلوم الشرعية وعني بعلم المنطق وبرع فيه ثم أعرض عنه (قلت : ما أعرض

(١) في الأصل : حفظ ، والتصحيح عن تذكرة الحفاظ - هذا ولم نجد الجملة بهذه العبارة في طبقات الأئمة المطبوع لصاعد (٢) زاد صاعد : وهذا شيء ما علمنا من أحد كان في دولة الإسلام قبله إلا لاني جعفر بن جرير الطبري فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفاً - طبقات الأئمة من ١١٠ (طبعة السعادة)

عنه حتى زرع في باطنه أموراً وانحرافاً عن السنة ، قال : (وأقبل على علوم الإسلام حتى نال من ذلك ما لم ينله أحد بالأندلس قبله . »

[حالة خصومه عليه وانصاف الذهبي له]

وقد حط أبو بكر بن العربي على أبي محمد في كتاب (القواصم والعواصم) وعلى الظاهرية فقال : « هي أمة سخيصة تسورت على مرتبة ليست لها وكنكات بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم علي رضي الله عنه يوم صفين فقالت : (لا حكم إلا لله) . » وكان أول بدعة لقيت في رحاتي القول بالباطن فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيصة كان من بادية إسبيلية يعرف بابن حزم نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم انتسب إلى داود ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة : يضع ويرفع ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ويقول عن العلماء ما لم يقولوا تنفيراً للقلوب منهم ، وخرج عن طريق المشبهة في ذات الله وصفاته فجاء فيه بطوام . واتفق كونه بين ^(١) قوم لا بصر لهم إلا بالمسائل فإذا طالبهم بالدليل كاعوا ^(٢) فيتضاحك مع أصحابه منهم ، وعصده الرياسة بما كان عنده من أدب ، وبشبه كان يوردها على الملوك ، فكانوا يحملونه ويمحمونه بما كان يلقي إليهم من شبه البدع والشرك . وفي حين عودي ^(٣) من الرحلة ألفت حضرتي منهم طافحة ، ونار ضلالهم لافحة ، فقاسيتهم مع غير أقران وفي عدم أنصار ، إلى حساد يطوئون عقبي ، تارة تذهب لهم نفسي ، وأخرى

(١) في الأصل من والتصحيح عن تذكرة المفاظ للذهبي (٢) كاعوا تخافوا وحينوا

(٣) في الأصل : عوده ولا يستقيم بها الدني ، والتصحيح عن تذكرة المفاظ

ينكسر لهم ضرسي ، وأنا ما بين إعراض عنهم أو تشغيب بهم . وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه (نكت الاسلام) فيه دواهي فجددت عليه نواهي ، وجاءني آخر برسالة (في الاعتقاد) فنقضتها بـ (رسالة العزة) والأمر أفحش من أن ينقض . يقولون : لا قول إلا ما قال الله ولا تابع إلا رسول الله ، فإن الله لم يأمر بالاعتداء بأحد ولا بالاهتداء بهدي بشر . فيجب أن يتحققوا أنهم ليس لهم دليل وإنما هي سخافة في تهويل ، فأوصيكم بوصيتي : ألا تستدلوا عليهم وان تطالبوهم بالدليل ، فإن المبتدع إذا استدلت عليه شغب عليك وإن طالبتة بالدليل لم يجد إليه سبيلاً . فأما قولهم : (لا قول إلا ما قال الله) فحق ولكن أرفي ما قال ، وأما قولهم : (لا حكم إلا الله) فغير مسلم على الإطلاق ، بل من حكم الله أن يجعل الحكم لغيره فيما قاله وأخبر به . مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وإذا حاصرت أهل حصن فلا تنزلهم على حكم الله لأنك لا تدري ما حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك) وصح أنه قال : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء . . . الحديث . » اهـ

قلت : لم ينصف انقاضي أبو بكر رحمه الله شيخاً في العلم ، ولا تكلم فيه بالقسط ، وبالغ في الاستخفاف به ، وأبو بكر فعلى عظمتة في العلم لا يبلغ رتبة أبي محمد ولا يكاد ، فرحمهما الله وغفر لهما .

[سبب طلبه العلم ، وبلوغه فيه درجة الاجتهاد]

قال اليسع بن حزم الغافقي - وذكر أبو محمد - فقال : « أما محفوظه فبجر عجاج وماء ثجاج ، يخرج من بجره مرجان الحكم ، وينبت بشجاجه

ألفاف النعم في رياض الهم ، لقد حفظ علوم المسلمين وأربى^(١) على كل أهل دين ، وألف الملل والنحل ، وكان في صباه يلبس الحرير ولا يرضى من المكنانة إلا السرير . أنشد المعتمد فأجاد وقصد بلنسية وبها المظفر أحد الأطواد . وحدثني عمر بن واجب قال : بينما نحن عند أبي بلنسية وهو يدرس المذهب إذ بأبي محمد بن حزم يسمعوننا ويتعجب ، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه جوب^(٢) فيها فاعترض في ذلك ، فقال له بعض الحضار : (هذا العلم ليس من متحلاتك) فقام وقعد ، ودخل منزله فعكف ، ووكد منه وإبل فما كف ، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة وقال فيها : « أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب . »

[كلام للذهبي في الاجتهاد]

قلت : نعم من بلغ رتبة الاجتهاد وشهد له بذلك عدد من الأئمة لم يسغ له أن يقلد ، كما أن الفقيه المبتدي والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثير آ منه لا يسوغ له الاجتهاد أبداً ؛ فكيف يجتهد ؟ وما الذي يقول ؟ وعلام يبني وكيف يطير ولما يريش . والقسم الثالث الفقيه المنتهي اليقظ الفهم المحدث الذي قد حفظ مختصراً في الفروع وكتاباً في قواعد الأصول وقرأ النحو وشارك في الفضائل مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره وقوة مناظرته . فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيد^(٣) وتأهل للنظر في دلائل الأئمة ، فمتى وضع له الحق في مسألة وثبت فيها النص وعمل بها أحد الأئمة الأعلام كأبي حنيفة

(١) في الأصل أزكى وهو تصحيح والتصحيح عن تذكرة الحفاظ (٢) هي في الأصل بواو واحدة

(٣) في الأصل : والتقيد

مثلاً أو كمالك أو الثوري أو الأوزاعي أو الشافعي وأبي عبيد وأحمد وإسحق . . فليتبع فيها الحق ولا يسلك الرخص ، وليتورع ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليد . فإن خاف من تشعب عليه من الفقهاء فليستكنم بها ، ولا يتراءى بفعلها ، فربما أعجبتة نفسه وأحب الظهور فيعاقب ويدخل عليه الداخل من نفسه . فكم من رجل نطق بالحق وأمر بالمعروف فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده وحبه للرياسة الدينية ، فهذا داء خفي سارٍ في نفوس الفقهاء ، كما أنه داء سارٍ في نفوس المنفقين من الأغنياء وأرباب الوقوف والترب المزخرفة ، وهو داء خفي يسري في نفوس الجند والأمرء والمجاهدين : فتراهم يلتقون العدو ويصطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مخبة وكمين من الاختيال وإظهار الشجاعة ليقال . . ولبس العراقي " المذهبة والخذوذ المزخرفة والعدد المحلاة . . على نفوس متكبرة وفرسان متجبرة . وينضاف إلى ذلك إخلال بالصلاة وظلم الرعية وشرب المسكر ، فأنى ينصرون ؟ وكيف لا يخذلون ؟ اللهم فانصر دينك ، ووفق عبادك . فمن طلب العلم للعمل كره العلم وبكى على نفسه ، ومن طلب العلم للمدارس والافتاء والفخر والرياء تحامق واخثال ، وازدرى بالناس وأهلكه العجب ومقتته الأنفس قد أفلح من زكاهها وقد خاب من دساها (أي دسها بالفجور والمعصية . قلبت فيه الألف سيناً) .

سعيد الأفغاني

ينبع

(١) الرقية : ما يلبس تحت الهامة والقلنسوة ، مولد التاج ، وفي الأصل : العراق وهي تصحيف

مميزات بني أمية (١)

سيداتي ، آسائي ، سادتي

فضل بني أمية على قريش

لو حاول باحث ان يتحدث اليكم في موضوع مميزات بني أمية حتى يصورهم صورة تامة في الجملة لاحتاج الى بضع محاضرات ، ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله . قال النسابون واصحاب السير والتراجم : إن أمية تصغير أمة ، والأمة المملوكة ، والنسب اليه أموي يضم الهمة فأما من قال أموي بالفتح فقد أخطأ . وبني أمية من أشرف قبائل قريش يلتقي نسبهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام في جدهم عبد مناف . ومناف اسم صنم في الجاهلية مثل العزى والآت ومناة ووُد وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وأميمة الأكبر هو من ولد عبد شمس بن عبد مناف وولده حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ، وهؤلاء يقال لهم العنابس أي الأسود . ومن ولده العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص ، وهؤلاء يدعونهم الأعياص ، وأعياص قريش كرامهم ، يقال ما أكرم عيصه وهم آبؤه واعمامه وأخواله وأهل بيته .

وكان هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل أولاد عبد مناف بن قصي هم الذين يذهبون في التجارة الى البلاد المجاورة . يحمل هاشم الإبلان لرؤساء القبائل ، والإبلان الهد وشبه الاجازة بالخفارة ، وهو عبارة عن شيء من الرجز ، ويجعل لهم مع ذلك متاعاً مع متاعه ، ويسوق اليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤونة الأعداء ، فكان المقيم راجعاً والمسافر محفوظاً . والى هذا

(١) محاضرة القاها الاستاذ عبد كرد علي في مدرّج الجامعة السورية بدمشق يوم ٣ ذي القعدة

١٣٥٨ و ١٤ كانون الأول ١٩٣٩

الإيلاف الاشارة في سورة قريش (لا إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) والمعنى انه تعالى من على قريش بما انعم عليهم من الإيلاف الذي به كانوا يمتارون ويتجرون ولا يجوعون ، يرحلون رحلتين رحلة في الصيف وأخرى في الشتاء آمنين من اصحاب الفيل الذين جاءوا من الحبشة الى اليمن ليستولوا على البيت .

وكان هاشم يرحل الى الشام ويقصد الى غزاة ، وبه سميت غزاة هاشم وبها مات ، كما مات حرب بن أمية أيضاً في الشام ، وكان المطلب يرحل الى اليمن ، ونوفل الى فارس ، وعبد شمس الى أكسيوم من ارض الحبشة . فبنو أمية هم الذين هياؤا اسباب التجارة لقريش واثقذوهم من الغصوب ، أي من اخذ مال غيرهم ظلماً وعدواناً . وادخلوا مكة في طور مدني بعد ان كان عيش أهلها معقوداً بظلمات السيوف وأسنة الرماح ، وبهم عرفت قريش في ارض الروم والعجم والحبش ، وعرفوا هم العراق والشام واليمن والحبشة معرفة جيدة ، فبنو عبد مناف هم الذين كانوا اذا بولفون الجوار ويجبرون قريشاً بغيرهم ، وكانوا لذلك يسمون المجبرين ، والعرب تسميهم اقداح النضار لطيب أجسامهم وكرم فعلهم .

مكناة أبي سفيان بن حرب

وكان ابو سفيان (صخر بن حرب) — والد معاوية ويزيد وزياد وعتبة وام حبيبة وجويرة — ناجراً عظيماً يجهز التجار بماله واموال قريش الى الشام وغيرها من ديار العجم ، وكان يخرج احياناً بنفسه ، وكانت اليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب . واذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس ، والعقاب العلم الضخم يعقد للولاة . وقاد ابو سفيان قريشاً كلها يوم أحد ولم يقدها قبل ذلك رجل واحد إلا يوم ذات نكيف ، قادها المطلب ، ويوم نكيف وقيل ذي نكيف وقعة كانت بين قريش وبني كنانة بناحية يلملم من نواحي مكة ، فهزمت قريش بني كنانة ، وكان صاحب امرها عبد المطلب او المطلب . وابو سفيان كان يوم أحد

ويوم الاحزاب رأس من حاربوا الرسول . ولما كان عائداً في تجارة قريش من الشام أمسك المسلمون عليه الطريق فأبلى بلاءً حسناً حتى انقذ أموال التجار ، وكانت تقدر بخمسين الف دينار . وكان اذا ورد بلاد الروم اكرمته الأمراء والأعيان لمكانته في قومه . وكان قبل الاسلام يملك في البلقاء جنوبي الشام ضيعة يقال لها نفقس . وكان في الجاهلية هو وعتبة وابو جهل أفضل الناس رأياً .

حارب ابو سفيان رسول الله يوم كان يصعب عليه ، اول الدعوة ، ان ينزل عن ارستقراطيته وامرته .

وقيل ان معاوية ويزيد اسما قبل ايها ، وكناهما اـلامهما ، وكذلك ابنته ام حبيبة واسمها رملة زوجة الرسول اسلمت قبل ايها . وكانت تحت عبيد الله ابن جحش ، هاجرت معه الى ارض الحبشة فتنصر زوجها ، وثبتت هي على الاسلام ، فبعث الرسول عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ، فخطب عليه ام حبيبة فزوجها اياه ، واصدقها النجاشي من عنده عن رسول الله اربعمائة دينار . وزار ابو سفيان ابنته ام حبيبة لما قدم المدينة ليعلم الرسول ان يزيد في هدنة الحديبية ، ودخل على ابنته فأراد ان يجلس على فراش النبي فطوته دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله وانت امرؤ نجس مشرك فقال : يا بنية لقد أصابك بعدي شر .

وكان قبل اسلامه هو واولاده من المؤلفة قلوبهم يعطيهم الرسول من الغنائم والأموال ما يتألف به قلوبهم . وأسلم قبيل فتح مكة فقال العباس : يا رسول الله انه (أي أبو سفيان) يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه فقال : من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن اغلقت عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن . فلما دخل في الاسلام دين المساواة ، حارب مع رسول الله يوم حنين والطائف ، وحارب يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد ، كان يقاتل ويقول يا نصر الله اقترب ، يا نصر الله اقترب . وكان يقف على الكراديس يقص أي يقف أمام سرايا العسكر ويعظ ، والقاص الداعية .

تميز نساء بني أمية

وتطور ابو سفيان لما أسلم ، واخلص في انتحال الدين الجديد ، كما كان مخلصاً من قبل في دينه القديم ، وابدى براعة حرية في الاسلام كان ييدي مثلها سيف الجاهلية . قال ابو سفيان للنساء اللاتي مع المسلمين يوم اليرموك - واليرموك النهر الذي كانت عنده الوقعة الفاصلة بين العرب والروم ، وبها فتح الشام كله جنوبه وشماله - وكان كثير من المهاجرات حضرن يومئذ مع أزواجهن وابنائهن وجلسن خلف صفوف المقاتلين : لا يرجع اليكن احد من المسلمين الا رميته بهذه الحجارة وقتلن له : من يرجوكم بعد الفرار عن الاسلام واهله ، وعن النساء وهن امام العدو . ولما حيي الوطيس واستقبل النساء مُرَّعَان من انهزم من المسلمين أخذن يضربن وجوههن بعمد البيوت او عمد الفساطيط ويرمينهم بالحجارة ويقلن : أين أين عن الاسلام والأهات والأزواج .

كان لنساء بني أمية وغيرهن مثل جويرية ابنة ابي سفيان وكانت مع زوجها ، ومثل هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان ومثل أم حكيم بنت الحرث بن هشام ، وهذه قتلت سبعة من الروم في مرج الصفر بعمود الفسطاط ، وكانت عروساً ، والخلوق على جسمها تنبعث رائحته - كان لهن من البلاء العظيم يوم اليرموك ما يذكر بالفخر على وجه الدهر : قاتلن بالسيوف حتى سابقن الرجال ، وكانت النساء في الجيوش العربية يعملن في طهي طعام المحاربين ، وجلب الماء اليهم ، وغسل ثيابهم ، وتضميد جراحهم ، وتمريض مرضاهم ، وغير ذلك مما تعمله اليوم أعظم نساء الغرب لرجالهن في الحرب .

ويحدثنا المؤرخون انه ما فتحت بلدة في الشام الا وجد على أسوارها وفي ارباضها كثير من رجال بني أمية صرعى ، لكثرة ما عانوا من الجهاد في فتحها . وتدريب يزيد ومعاوية من أبناء أبي سفيان في السياسة والادارة ، وكان معاوية كاتب الوحي ، وكان عمر اذا نظر اليه قال : هذا كسري العرب . وعقد ابو بكر في خلافته

ليزيد بن ابي سفيان ، وكان يقال له يزيد الخير مع أمراء الجيوش الى الشام وقال :
 ان اجتمعتم في كيد فيزيد على الناس ، وان تفرقتم فمن كانت الواقعة مما يلي
 عسكريه فهو على أصحابه ، وشيعة الصديق راجلاً وهو راكب وجعل بوصيه ،
 ولما مات يزيد في طاعون عمواس (سنة ١٨) ، وهو الطاعون الذي هلك به في
 الشام ألوف من الصحابة وغيرهم ، ضمّ عمر بن الخطاب لمعاوية ما كان من عمل أخيه
 يزيد ، وهو إمارة دمشق فصارت الشام لمعاوية . اما زياد ابنه الثالث فكان من
 أدهى العرب ، ومن أعظم رجال الادارة الذين انبغهم الاسلام ، عزله عمر بن الخطاب
 فقال زياد : أعز عزلتني يا أمير المؤمنين ام عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذلك ولا عن
 هذا ، ولكنني كرهت ان احمل على العامة فضل عقلت .

من بني أمية على العرب وتمدينهم

ولقد كان لأبي سفيان وأبيه حرب منة عظيمة على العرب في الجاهلية ، وذلك
 بنقلها الخط الى جزيرة العرب من الحيرة ، وما كان الخط معروفاً في الحجاز ، فأثبتنا
 بهذا ان يتنها النبيل مصدر حضارة أيضاً ، ولأحد رجال بني أمية منة أخرى في
 الاسلام تعد عظيمة جداً في بابها ، وهي ان امير المؤمنين عثمان بن عفان جمع
 القرآن ، فنسخه من الصحف وارسل المصاحف التي كتبت منه الى الكوفة والبصرة
 ودمشق ومكة والمدينة وابقى عنده مصحفاً سموه الإمام ، ولولا عمله المجيد لضاع
 بعض آيات الكتاب العزيز لاعتماد العرب على الحفظ أكثر من الكتابة ، وكان
 بعض الصحابة يحفظون ما لا يحفظه غيرهم ، فاذا اتفق ان مات أحدهم يخشى أن
 يضيع ما كان يحفظه .

وكان امير المؤمنين عثمان يكرم حرمة بن المنذر الطائي ، وكان شاعراً نصرانياً
 يعلم بسير ملوك العجم . وأتى أمير المؤمنين معاوية بأمد بن أهد الحضرمي وببديد بن
 شربة الجرهمي من اليمن يقصان عليه اخبار ملوك العرب والعجم ، وامر بتدوين

ما كانا يوردان عليه ، فكان أول من بدأ بتدوين التاريخ في الاسلام ، واستصفي معاوية كعب الأخبار لكثرة علمه ، وكان يعطف كثيراً على الشاعر سعيد بن عريض بن عدياء أخى السموءل بن عدياء من يهود الحجاز . وحفيد معاوية خالد بن يزيد ، وكان يدعى عالم قریش ، هو الذي زهد في الخلافة كما زهد فيها أخوه معاوية الصغير من قبل وصرف وقته في ترجمة كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحرب والصناعات من اللغات القبطية والسريانية واليونانية ، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الاسلام ، والغالب انها كانت في دمشق . وأمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز الأموي هو الذي دَوّن الحديث وأمر بترجمة كتاب في الطب لينفع به الناس .

ولو لم يكن بنو أمية على جانب عظيم من النبوغ ومعرفة ثاقبة بحكم الناس ما وسد اليهم الرسول الولايات والأعمال العظيمة ، وقد انتقل الى جوار ربه وأكثر عماله منهم ، وما كان فيهم أحد من بني هاشم ، وما استطاع الخليفان الأولان ابو بكر وعمر ان ينقضا ما أمره الرسول من ذلك . والوظائف الكبرى توسد في الدول لمن يوثق بهم ، ويعرفون روح الدولة أكثر من غيرهم ، والادارة يبرع فيها الثمرون عليها ، وبنو أمية كانوا أمراء في الجاهلية وكانوا كذلك في الاسلام ، تناقلوا فيهم حكم الناس كابراً عن كابر .

مميزات معاوية

تولى معاوية الشام أربعين سنة ، عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة . وجاء عمر بن الخطاب الى الشام مرة فلقاه معاوية في موكب عظيم ، فسأله عن سبب هذه الأبهة التي اصطنعها فقال : إنا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من هيئة السلطان فان أمرتني به أقمت عليه ، وان نهيتهني عنه انتهيت ، فلم يأمره به ولم ينهه . أي أنت معاوية اتقع خليفة مثل عمر بن الخطاب الذي كان لا يرى الا الخشونة لنفسه ولعماله ، بتقليد الروم في ظاهريهم . وما حاد معاوية عن

الأصول التي وضعها عمر بن الخطاب في الإدارة ، بل أدخل فيها أموراً اقتضاها الزمان والمكان ، ففتح صدره لكل ما استحسنه مما كان عند الأمم المجاورة ، وكانت العرب لا تعرفه ، فأخرج الإدارة بذلك من سذاجة البداوة الى مجبوحة الحضارة . ما كانت معاوية يصدر الا عن مشورة ولا يأتمن في ادارة الولايات والأعمال إلا الكفاة من أهل بيته غالباً ، ويستشير ارباب الرأي من انصار دولته ، وكان له منهم مجالس اشبه بمجالس النواب والشيوخ ، ومجالس في الولايات يدعونها مجالس الوفود . واستخدم النصارى في مصالح الدولة ، وكان عمر يمتنع من استخدامهم أو يسلموا ، فعهد الى سرجون بن منصور ثم الى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام بادارة أمواله ، أي أن بني سرجون كانوا وزراء المال لمعاوية . وكان في جيشه الانباط والجراجمة والمعجم وغيرهم من العناصر غير العربية وغير المسلمة ، فقام بتأسيس دولته بما تقوم به الدول ولا ينافي أصول الخلافة .

ومما يعرب عن سعة عقله وأنه عملي في جميع حالاته لا يبالى بالقشور والظواهر متى أوحى اليه العقل رأياً سديداً ما ذكره المؤرخون من أن عبد الله بن قيس غنم من صقلية أصناماً من ذهب مكللة بالجوهر فحملها معاوية من دمشق وأنفذها الى البصرة ومنها الى الهند لتباع فيها لأنه رأى يبيعها فائدة أكثر لثمنها ، ولم يبال انتقاد المتزمتين من المسلمين .

توفر معاوية على تحسين آلة الحكم وادخل عليها ما ينفعها ويقويها ، وتسامح ولم يضيق على نفسه ولا على أمته في ادخال التجدد وعرض على جبلة بن الأيهم سيد بني غسان — لما هرب الى الروم لأن عمر أراد ان يقتله بمن قتله — أن يعطيه الغوطة كلها اقطاعاً على أن يعود من الروم ويرجع الى الاسلام ، يريد بذلك ان يتلافى ما وقع من عمر في ذلك ويقوي الاسلام به . ويجميل سياسته أخرج الخلافة من آل علي الى بني أمية وأخذها من الحسن بن علي بمال دفعه اليه ووعود وعده بها ، وكان بذلك عام الجماعة اي اجماع المسلمين على إمام واحد .

وابتكر معاوية أموراً رأى فيها فائدة عامة منها انه أول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين ايديهم ، ووضع المقصورة التي يصلي فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، والشرطة على رأسه اذا سجد ، وهو أول من اتخذ حرس الليل ، وأول من غزا في البحر وأنشأ الأسطول في صناعة صور وطرابلس ، وكان كثيراً ما يطلب من الخليفة الثاني ان يأذن له بصنع الأسطول فلا يرضى بالتوسع في ذلك ، وما سمح بركوب البحر الا للبتوغة يبحرون براضهم غير مكهرين ولما جاء الخليفة الثالث انطلق معاوية في بناء السفن كما أراد ، وكان معه في فتح رودس وقبرص ألف وسبعائة سفينة ، هذا عدا السفن التي أحرقت في طرابلس بأيدي أناس من صنائع الروم ، وكان روم القسطنطينية في خوف من أسطوله في البحر ، كما يحسبون ألف حساب لجيشه في البر .

بعض أعمال معاوية في اصلاح الدولة

ومن أهم ما قام به تنظيم الجيش ، وادخال الإصلاحات التي تزيد في قوته ، وتجعله ابداً تحت السلاح عند الطلب ، فضاعف لذلك عطاءه وارزاقه ، ووقت اوقاتاً لتناول الرواتب ، فهو أول من نظم الجيش بهذا النظام الغريب ، وجهره بكل ما يلزمه ، وجعل الجندي لا يستند في معاشه على غير رزقه من بيت المال . وكان لكل جند من اجناد الشام جيش خاص به من أهل الاقليم الذي يتألف فيه ، والجنود هو مانسيه بالفرنسية *Le gouvernement militaire* فمن جند دمشق ، الى جند الأردن ، الى جند فلسطين ، الى جند قبرسين . وأهم ما كانوا يهتمون له المراقبة على الحدود والثغور القريبة من ارض الروم . ولطالما ادهش معاوية الروم بصدقه كما ادهشهم بوفائه ودهائه . وقد ارتهن مرة رهائن منهم وضعهم في بعلبك ، فغدر به الروم بعد مدة ، فلم يستحل قتل من في يديه من رهنهم واخلى سبيلهم وقال : وفاء بغدر خير من غدر بغدر .

ومعاوية أول من وضع البريد ، أحضر رجالاً من دهاقين الفرس فعرفهم ما يريد

فوضعوا له البريد واتخذوا له بقالاً بإِِ كاف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجيز عليه الا الخليفة او صاحب الخبر أي مدير الاستخبارات . وكان لصاحب الخبر في الاسلام شأن عظيم كما له عند الدول الحديثة . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ، ولم تكن تحزم ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم ، ويقال نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله فيسميه وبياله ، فاذا فرغ من هذا القبيل اتى الديوان حتى يثبت ذلك . وبهذا كان الخليفة يحصي السكان ولا يفوته خبر المتنقلين في ربوع بلاده .

كان لمعاوية انواع من السياسات برز فيها حتى عد من أعظم ساسة العرب . كان لا يولي الا السيد المسود في قومه ، ويستميل القلوب بالعتاء او بالاقناع او بالاغضاء ، فاذا لم تنجح هذه الوسائل وتوجس شراً ممن اغضى عنه وترضاه فلم يفلح عمد الى القسوة ، وكان يقول لا أضع سبني حيث يكفيني سوطي ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . وكان يقول : اني لا أحول بين الناس وبين السنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . أي انه يطلق للناس حرياتهم فاذا لجأوا الى اظهار القوة اذاقهم بأسه الشديد . وكان يبذل الأموال العظيمة للعالمين والهاشميين فاذا لامه احد على هذا البذل اجلهم إن الحرب تستلزم نفقات اكثر من هذا العطاء . وكذلك كان ابنه وولي عهده يزيد : اعطى عبد الله بن جعفر اربعة آلاف الف فقيل له : أتعطي رجلاً واحداً هذا ؟ فقال : ويحكم إنما اعطيتها اهل المدينة اجمعين فما يده الا عارية .

واستجند معاوية القصاص للدعاية السياسية يقعدون في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من اعدائها ، وهذه الدعاية لم تكن زمان النبي ولا زمان صاحبيه ابى بكر وعمر ، وكان القاص اذا سلم الامام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحده

ومجده ، وصلى على نبيه ، ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده ، ودعا على أهل حربه . واستخدم أيضاً الشعراء للدعاية ، وزين لهم الدعوة الى التفخر بالقبيلة والأيام المشهورة ، واخرج الشعر من الهجاء بعض الشيء ، وكان الشعراء في العصر الغابر كأرباب الصحف في المدينة الحديثة يفعلون في عقول الناس بشعرهم ، خصوصاً اذا كان الشاعر فعلاً مفلقاً . اما الخطابة فكان جميع أهله خطباء ، وقد كان قوادهم ورجلهم كذلك خطباء أبناء . وخطب زياد وعقبة والحجاج من ابلغ ما يؤثر عن خطباء العرب .

ابداع معاوية

كان معاوية يبرز عماله في الادارة ويعلمهم إياها بالعمل ، ولا يعتمد الا على العظماء والدهاة امثال عمرو بن العاص والمغيرة . وكان من عادته اذا اراد ان يولي رجلاً من آلہ بني حرب ولآه الطائف ، فان رأى منه خيراً وما يعجبه ولآه مكة معها ، فان احسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً جمع له معها المدينة ، فكان اذا ولي الطائف رجلاً قيل هو في ابي جاد ، فاذا ولآه مكة قيل هو في القرآن ، فاذا ولآه المدينة قيل هو قد حنق .

وله في سياسة العناصر ضروب من الابداع منها انه رأى النصارى كثرة غامرة في الشام فما احب اجلاؤهم ، وما رأى من السياسة تركهم وشأنهم ، لئلا يستعين بهم الروم على الفاتحين ، فنقل الى الساحل قوماً من زط البصرة والسيابجة وانزل بعضهم انطاكية ، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الأردن . وصور ، ونقل من أساورة البصرة والكوفة (الأساورة قوم من العجم بالبصرة كالأحامرة بالكوفة) وفرس بعلبك وحمص وانطاكية جماعة . واسكن حصن سفيان الذي بناه على اميال من طرابلس ، جماعة كثيرة من اليهود ، واسكن الشام كله جمهرة من القبائل العربية مزجهم بأهلها الأصليين ، فأصبح الساحل كالدخل في هذه الديار غاصاً بالعجم والعرب والسود والبيض وبالمسلمين والنصارى واليهود .

رأى معاوية أن أرض الحجاز قاحلة ، يعيش أهلها في شظف من العيش ، على هذا كانوا منذ أقدم عصور التاريخ ، ولما جاء الاسلام وفتحت البلاد وكثرت الأموال فرض عمر بن الخطاب العطاء ، فأصبح الناس يعيشون من عطائهم ، وكان بعضهم يعيشون في الجاهلية من تجارتهم . وفي الاسلام دخل المتازون في اعمال الدولة ، ولكن هذا لم يدم طويلاً ، على ما تنبأ به حكيم بن حزام لعمر ، فتركت قريش التجارة واكتفت بالعطاء ، ثم بطل العطاء وبطلت التجارة ، لما تحولت دار الملك من المدينة الى دمشق .

خشى معاوية ان يهلك الناس في الحجاز اذا اعتمدوا على الموسم موسم الحج ، أو على صدقات المسلمين ، فعمي في جملة ما عني به من أعماله باصلاح الزراعة في بلاد الحجاز ، فأحيا موات الأرضين ، واحفر الآبار للسقيا ، واقام سدوداً لخزن المياه والأمطار ، فعاشت الحجاز من أرضها قرناً لم تشهد مثله من قبل ولا من بعد . وسارت أميرته على قدمه في هذا الباب فما أبطلت عمله بل تعديته ونمته . وتسلسل الفكر مائل في بني أمية يتم الآخر أبداً ما بدأ به الأول ، لا ينقضه ولا يغيره . واغظم ما فاز به معاوية ان رعيته من أهل الشام كانت تحبه محبة عظيمة ، وبهم وريّ زناده ووصل الى اهدافه وكتب له النصر على اعدائه .

مميزات بني أمية

ويطول بنا نفس القول اذا اردنا ان نعرض لكل خليفة من خلفاء الأمويين ، وما قام به من الأعمال العظام في السياسة والادارة ، واذا وازنا بين الرجال لانرى من عيارهم في الدول الخالفة كثيراً ممن يدانهم ، وابن مثل مروان ، وابنه عبد الملك وابنه عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك ، والوليد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ؟ ولعمر بن عبد العزيز في أمور الدولة وميادتها وتنظيم ادارتها ابداع لم يعهد مثله الا لجدّه لأمه امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت له في باب التقوى والزهد اعمال تتضائل معها سيرة الزهاد المشهورين .

قال ابن الأثير: ولقد سمعت عن عمر بن العزيز كلمة أعجبتني جداً، وهي انه قيل له سيف الذي يُخرجه ويطلقه من الأموال التي لا تسمع نفس ببعضها فقال لهم: أنا فتحت الدكان بعد العصر، فاطر كوني اعمل الخير فكم اعيش؟ وكذلك كان.

ومما امتازت به دولة الأمويين انها كانت دولة عربية صرفة بدمها وأخلاقها وعاداتها ومرامها ومظاهرها، وكان ابناؤها كلهم يحرصون على التزوج من العربيات من بنات الأشراف، ولم يكن في جميع خلفائهم من أمه أم ولد غير مروان بن محمد آخر خلفائهم في الشرق، كانت أمه كردية، على حين كان العباسيون كلهم ابناء إماء الا اولهم السفاح، ولذلك جعلوه اول خلفائهم وقدموه على المنصور وهو اكبر منه سنًا وعلمًا وسابقة. افسد العباسيون دمهم العربي بالاقتران بالاماء، وافسدوا عصبيتهم بما كان من زهدهم في عنصرهم واعتمادهم على ابناء خراسان وعلى الموالي والعبيد فسقطت الأصول وقامت القروع بدلها، وأصبح بنو العباس على طول الأيام خلاسين وهجاء لا بالعرب ولا بالعجم. اما بنو أمية فما عهد فيهم هذا، كان دمهم صافياً وأخلاقهم متشاكلة، ويقوم نساؤهم ورجالهم عند الحد الذي رسمته لهم الفطرة، وقضت به احكام الشريعة.

ما سمع في دولة بني أمية ان يتدخل النساء في شؤون الدولة وقد رأينا الحرم في الدولة العباسية منذ عهد المنصور يتدخلن فيما لا يعنينهن من شؤون الرجال، ولذلك اوصى المنصور ابنه الا يجعل للنساء سبيلاً الى الدخول في مهمات دولته. وكان من اثر تغيير الدم العباسي واتخاذ أمهات أولادهم من الفارسيات والروميات والكرجيات وغيرهن ان كثرت المؤامرات في قصور الخلفاء، واصبح قتلهم من الأمور المعتاد وقوعها، وكانوا — اذا استثنينا منهم المنصور والرشد والمأمون والمعتمد واثنين او ثلاثة من المتأخرين من خلفائهم — الى ذل ليس بعده ذل، واكثرهم أشبه بمشايخ طرق في زواياهم منهم بخلفاء يأمرون في قصورهم فلا يعصون، ويشهرون الحرب ويعقدون الصلح، واحكامهم نافذة في القاصية والدانية.

ربما 'يعترض على هذا بأن الوليد بن يزيد من الأمويين قد قُتل أيضاً ، والغالب ان قتله كان بسبب تخليه عن اليانية لالفسقه ولا للهوى كما اتهموه ، وهذه التهمة اذاعوها ليبرروا أمام الأمة مقتله ، اما سائر خلفائهم فكانوا في الغاية من السياسة والشجاعة والحزم والتقوى والعمل ليل نهار على مصالح دولتهم ومصالح الناس . وكان آخرهم مروان بن محمد على غاية العقل وحسن التدبير ، ولما نفذ القضاء سقطت الدولة بيده ، حتى ان الخليفة الذي جار عليه التاريخ - وتاريخ بني أمية كتيبه اعداء دولتهم بعدم ، كما شاعت الأهواء السياسية - ونعني به امير المؤمنين يزيد بن معاوية لم يكن باجماع ثقات المؤرخين بالدرجة التي صوره بها اعداء دولتهم ، ولا هو الذي قتل الحسين ولا امر بقتله ، ولما جاءه خبر مقتله اضطرب ولعن قاتله ، فالتخذ أعداؤه من هذه الفاجعة المؤلة حجة على الخط من يزيد وآل يزيد .

عمران الأمويين وتأثيراتهم الدينية والمدنية

ومما امتازت به دولة بني أمية غرام رجالها بالعمران ، فقد اقام خلفاؤهم في المشرق أمثال الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك من الجوامع والمستشفيات والخانات ودور الضيافات والقصور والطرق والجسور والسدود وتمصير الأمصار وتحضير البوادي والقفار ما هو عجيبة تلك العصور ، وما زال الجامع الأموي بدمشق وقصر الخير الذي اكتشف في البادية وحي بنموذج منه الى متحف دمشق شاهدين على تلك العناية الفائقة وتلك المدنية الباهرة . قال احد دهاقين خراسان لعاملها من بني أمية (والدهقان رئيس الاقليم) انكم بنيتم الابوانات في المفاوز ، فيجيء الجاني من المشرق والآخر من المغرب فلا يجدان عيباً الا ان يقولوا : سبحان الله ما أحسن ما بُني .

أما ما قامت به دولتهم في الغرب من الأعمال العظيمة على يد مؤسسها عبدالرحمن الداخل وآل بيته فأعاد به مجد آبائه بعد ان قضى العباسيون في الشرق على كل أموي وأموية فالكلام عليه يطول . ولا تغالي اذا قلنا ان ثلث ماتم للعرب من

حضارة قام في الأندلس بفضل بني أمية ، والثلاثان الآخران قاما في بغداد ودمشق والعواصم الأخرى كعصر ونيسابور وشيراز والري وأصفهان وغزنة . وبما عرف به الأمويون من مهوونة سياسية وإدارة - كقيمة رشيدة انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية في القاصية من دون مادعاية ولا تبشير مبشرين ، وامتد ملكهم الواسع في بلاد تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ارباع مساحة اوربا ، وقدرها بعضهم بثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ وذلك من سواحل الاطلنطي الى تخوم الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها الى خط الاستواء وما وراءه . وفي عهدهم دخلت في الاسلام أمم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريرات والكلدان) ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والاسبان والأهاند) والاهاند او الهنادك رجال الهند ، ومن السلالة التورانية (الترك والتتار) وكانت تقام شعائر الاسلام وبقرا القرآف في قرطبة وفاس كما تقام الصلوات في السند وسمرقند ، وتتلاقى العناصر المختلفة في المومم بمكة ، وفيهم الاسود والأحمر والأصفر والاييض تجمعهم جامعة الاسلام والطاعة لبني أمية . واصبحت دمشق هذه في نظر المسلمين كرومية في نظر اهل النصرانية ، وما كانت قبل عهد الأمويين تعد شيئاً بين العواصم والخواضر ، ودك العباسيون معالم عمرانها عندما فتحوها مخافة ان ينسب للأمويين شيء من الحسنات تذكر الناس بخصومهم أمس ، وقضوا على كل اثر لهم على نحو ما فعل التتار بالعباسيين في القرن السابع لما استولوا على بغداد عاصمة ملكهم وقضوا على الخلافة العباسية

(ينفع)

أولية تدوين المعاجم وتاريخ كتاب العين المروي عن الخليل بن أحمد

أحاط بكتاب العين ونشأته كثير من الغموض ، وتضاربت أقوال الناس في مؤلفه تضارباً شديداً ، وكثر الطعن فيه حتى ليصعب على الباحث أن يتخذ لنفسه بشأنه رأياً خالصاً من كل شائبة ، وأين هذا من قيمة الكتاب وحسن الأثر الذي أحدثه في عالم المعاجم العربية إذ كان أولها وفيه ظهر الترتيب على حروف المعجم وعنه أخذ . وقد تعرض بعض علماء عصرنا للبحث في كتاب العين بحثاً معمقاً^(١) وعنوا ببعض نواحيه غير أنهم جميعاً لم يذكروا بالتفصيل تاريخ نشأته وكيفية تأليفه مع أن ذلك فصل جليل القدر من تاريخ علم اللغة العربية بل من تاريخ العلوم العربية عامة لما له من أثر في نشوء ترتيب الألفاظ على حروف المعجم ذلك الترتيب الذي اتخذته مؤلفو العرب نهجاً في التأليف اقروه واستفادوا منه وقدموه خالصاً لعلماء الغرب يمجنون منه أحسن التمجير .

وسأحاول في هذا البحث أن أسد هذه الثغرة ما استطعت ، ومبني إلى ذلك أن أدرس أولاً أقوال العلماء في كتاب العين وأحررها ثم اذكر كيف أسس بناؤه فاستطرد إلى الترتيب على حروف المعجم وأثر الخليل بن أحمد في ذلك واختتم البحث في صورة اتمام الكتاب بعد تأسيس بنائه .

(١) نذكر منهم على ترتيب تاريخ نشر أبحاثهم الاستاذ جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٢٢ - ١٢٤ والاستاذ أحمد أمين في ضحى الاسلام ٢ : ٢٦٦ - ٢٦٩ والاستاذ ويليام مارسيه في درس له عن المعاجم العربية ألقاه عام ١٩٣٦ (اخذ عنه مذكرات الاستاذان محمد المبارك وخلدون الكتاني وتضلاً بأعاريق هذه المذكرات) والاستاذ الاب انتناس ماري الكرملي في مجلة الثقافة السنة الاولى العدد ٣٢ ص ٤٢ - ٤٥ والعدد ٧٢ ص ٣٢ - ٣٣ الى غير ذلك من الابحاث التي ستركها خلال دراستنا هذه .

١- اقوال العلماء في كتاب العين وتحويرها

لم يُعرف كتاب العين في حياة مَنْ نُسب إليه اي الخليل بن احمد^(١) نابغة العرب ومبدع علم العروض ومثقف الأنعام، ولم يرو الكتاب عنه تلميذ معروف من تلامذته بل ظهر بعد وفاته سنة ١٧٠ او ١٧٥ ورواه الليث بن المظفر بن نصر بن سيار^(٢) من فقهاء خراسان وظهر في كتاب العين ما يدعو اكثر من مرة إلى استنكار نسبه إلى الخليل حتى لقد قيل « اتفق علماء اللغة على كثرة الأغليب في كتاب العين^(٣) » « واطبق الجمهور منهم على القدح فيه^(٤) » « فان فيه من التخليط والخلل والفساد مالا يجوز ان يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلاً عن نفسه^(٥) » والخليل كان امة في اللغة « يُربأ به عن نسبة الخلل إليه^(٦) » زد إلى ذلك « ان ما وقع في الكتاب من معاني النحوي انما هو على مذهب الكوفيين وبخلاف مذهب البصريين^(٧) » مع ان الخليل شيخ البصريين . وهناك ما أخذ أخرى على الكتاب سراً فيما يأتي ؛ على ان كل هذه الحجج لا تستقيم في تعليل ادعاء

(١) ذكر الاستاذ ابن شب في ملحة الاسلام الطبعة الافرنسية ٢ : ٩٤٠ والاستاذ بروكان في تاريخ الآداب العربية (G. A. L.) ١ : ١٠٠ وفي ذيله له ايضاً ١ : ١٥٩ المطان التي ترجم فيها للخليل بن احمد ونضيف اليها اخبار النحويين البصريين للسيرافي طبعة الاستاذ كرنكوس ٢٨ والكامل لابن الاثير في وفيات سنة ١٩٠ : ٦٤ : ١٨ وتاريخ ابن كثير ١٠ : ١٦١ في وفيات سنة ١٧٠ ونهاية النهاية في طبقات القراء ١ : ٢٧٥ ومفتاح السعادة لطاشكيري ١ : ٩٥ وطبقات النحويين لابن قاضي شبه نسخة الظاهرية تاريخ ٢٤٨ من ٢٧٩ وتجميع المقال للمهاقي ١ : ٢٠٢ ومنتمى المقال لابي علي ٢٨ ورجال ميرزا محمد ١٢٢ وشرح العمود لابن تباته من ١٤٤ - ١٤٧ طبعة ١٢٧٨

(٢) يترجم له الازهري في تهذيب اللغة من ٢٧ من طبعة زرتسين Zettersten وياقوت في رشاد الاربع طبعة مارجلوث ٦ : ٢٢٢ - ٢٢٧

(٣) النووي ، تهذيب الاسماء واللقب من ٢٤١

(٤) المزهرة مطبعة الاسماعيلية ، ١٢٨٢ : ١٤ : ٢٨ و ٥٨

(٥) عن ابن جني في المزهرة ١٤ : ٢٠ والبلغة لمحمد صديق حسن خان ، طبعة ١٢٩٦ من ١٥٨

(٦) عن الزبيدي في المزهرة ١ : ٢١

(٧) عن الزبيدي في المزهرة ١ : ٢٢ وكشف الظنون طبعة ١٢١١ ، ٢ : ٢٩٠

الليث بن المظفر نسبة الكتاب الى الخليل ، والكتاب إبداع يتمنى كل عالم ان ينسب اليه . وكذلك تضاربت آراء العلماء وانقسموا الى طوائف اربع في امر نسبه الى الخليل .

نسب الى الطائفة الأولى القول بان الخليل لاعلاقة له بكتاب العين فذكر ان ابا بكر بن دريد (٢٢٣ - ٣٢١) قال : « لم يرو هذا الكتاب عن الخليل احد ولا روي في شيء من الأخبار انه عمل هذا البتة ^(١) » والحق ان ابن دريد لم يقل هذا فقد ورد في كتاب الجهرة له ما يناقضه ^(٢) وفي الخبر مغالاة كبيرة وخطأ فقد روى ابن راهويه (٢٣٨ -) الفقيه المعاصر لليث ان الخليل شرع في عمله ^(٣) كما سنرى ذلك ، وذكر لنا ابن فارس (٣٩٥ -) انه قرأ الكتاب مروياً بسند أوصله الى بندار بن لوه الأصفهاني ومعروف بن حسان عن الليث عن الخليل ^(٤) » وذكر ابو محمد بن درستويه (٢٥٨ - ٣٤٧) انه سمع كتاب العين بهذا الاسناد : « قال ابو الحسن علي بن مهدي الكسروي ، حدثني محمد بن منصور المعروف بالزاج المحدث قال قال الليث بن المظفر بن نصر بن سيار كنت اسير الى الخليل ^(٥) » الى آخر ما ذكر . ورواه ابن عبد البر الاندلسي ^(٦) (٤٦٣ -) وابو بكر محمد بن خير بن خليفة ^(٧) (٥٠٢ - ٥٧٥) بسند يتصل الى ابي الحسن علي بن مهدي عن ابي معاذ عبد الجبار بن يزيد عن الليث بن المظفر بن سيار الليثي عن ابي عبد الرحمن الخليل . ولعل الناس رأوا ان كتاب العين اتقل الى علماء كثيرين دون رواية فظنوا ان لا رواية له فنسبوا الى ابن دريد ما لم يقل

(١) في الفهرست طبعة طوحيش ص ٤٢ - ٤٣ (٢) قال في ٣/١ « وقد الف ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد ٥٠٠ كتاب العين ، أتت من تصدى لثانيه » (٣) التهذيب للازهري ص ٣٧ وارشاد الايوب لياقوت طبعة مارجليوث ٦ : ٢٢٢ (٤) المغايس في اللغة نسخة مصورة في المجمع العالمي ص ١ (٥) في الفهرست ٤٢ (٦) في الزهر : ٤٦ (٧) في فهرسة مارواش عن شيوخ في المكتبة الاندلسية ص ٣٤٩

وذكروا عن ثعلب (٢٠٠ - ٢٩١) انه قال ان « كتاب العين موجود ولا رواية له ^(١) » وقالوا سئل النضر بن شميل (- ٢٠٣) عنه فأنكره فقيل له :
 لعله ألفه بعدك ، فقال : اخرجت من البصرة حتى دفنت الخليل بن احمد ^(٢) »
 ولعلمهم نسوا ان النضر لو كان صاحب الكتاب لما كان نسبه الى الخليل بل
 تبجح به . وذكر الزبيدي في رفض الكتاب مايلي ^(٣) « لما ورد كتاب العين
 من بلد خراسان في زمن ابي حاتم انكره ابو حاتم واصحابه اشد إنكارا ودفعه
 بأبلغ الدفع ، وكيف لا ينكره ابو حاتم على ان يكون بريثا من الخلال سليما من
 الزلل وقد عبر أصحاب الخليل بعد مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون
 به منهم النضر بن شميل ومؤرج ونضر بن علي وابو الحسن الأخفش وامثالهم ٠٠٠
 ثم ظهر الكتاب بأخرة في زمان ابي حاتم وفي حال رياسته وذلك فيما قارب الخمسين
 والمائتين لأن ابا حاتم توفي سنة ٢٥٥ ^(٤) » وليس في هذا القول تحقيق فكيف
 لا يعرفه ابو فيض مؤرج بن عمرو السدوسي العجلي ^(٥) وقد استدرك عليه كما يقول
 ابن النديم ^(٦) واستدرك عليه النضر بن شميل ^(٧) ايضا واذا قد عرفه مؤرج (توفي
 سنة ١٩٥) والنضر بن شميل (توفي سنة ٢٠٣ او ٢٠٤) فهو قد انتقل من خراسان
 قبل سنة ٢٥٠ ففي هذا الخبر أغلاط تاريخية تجعلنا نشك في بقيته اذ تقول « ولم
 يلتفت اليه احد من العلماء ، ولا استجازوا رواية حرف منه ولو صح الكتاب عن
 الخليل لبدر الاصمعي واليزيدي وابن الاعرابي واشباههم الى تزوين كتبهم وتخليه
 عنهم عن الخليل والنقل لعلمه وكذلك من بعدهم كأبي حاتم وابي عبيد ويعقوب
 وغيرهم من المصنفين فما علمنا احدا نقل في كتابه عن الخليل من اللغة حرفا » واذا

(١) النهرست ٦٠ (٢) ارشاد ٦ : ٢٢٧ وانظر عن النضر بروكان ١ : ١٠٢ وذيله ١ : ١٦١
 (٣) المزهر ١ : ٤٢ (٤) المزهر ١ : ٤٢ وانظر عن ابي حاتم سهل بن محمد السجستاني بروكان
 ١ : ١٠٧ وذيله ٢ : ٦٧ (٥) انظر بروكان ١ : ١٠٢ (٦) النهرست ٤٣ (٧) كشف
 الظنون ٢ : ٢٩١ ، تهذبة الالباء للاباري ، طبعة ١٢٦٤ ، ص ١١١ ، وفیات الاعيان ٢ : ١١٣

قبلنا ان هؤلاء العلماء لم يستجيزوا الرواية من الكتاب فذلك لأنهم لم يثقوا براوي الكتاب والحق يقال اننا لم نثلق خبراً موثقاً عنهم بنفي اثر الخليل من الكتاب نفيّاً باتاً حتى إن الزبيدي الذي يورد هذه الاعتراضات لا ينفي عن الخليل يده في الكتاب .

والطائفة الثانية تنسب الكتاب الى الخليل وعلى رأسها ابن فارس (— ٣٩٥) الذي يدعي ان « اعلا كتب اللغة كتاب ابي عبد الرحمن الخليل بن احمد المسمى كتاب العين ^(١) » ومنها الانباري الذي يقول ان « الخليل اول من ضبط اللغة واملي كتاب العين على الليث بن المظفر ^(٢) » ويقول بتأليف الخليل للكتاب ابن خلدون ^(٣) وابو بكر بن خليفة ^(٤) ومحمد صديق حسن خان ^(٥) وابن شنب ^(٦) ولعلهم حين قالوا بذلك لم ينتهوا الى المطاعن على الكتاب ، ودليلنا على ذلك ان ابن فارس حين يذكر اخطاء كتاب العين يخشى ان ينسبه بنفسه الى الخليل فيقول « واما الكتاب المنسوب الى الخليل فان فيه من الأخلال مالاخفاء به على علماء اللغة ^(٧) » وكذلك يبدو ان هذه الطائفة لم تؤثق قولها بدليل بل اقتنه على عواهنه بلا تحرير .

والطائفة الثالثة تدعي ان الخليل شرع بالكتاب ومات قبل ان يتمه فأنتمه الليث . واول من قال بذلك على ما نعلم اسحاق بن ابراهيم الحنظلي بن راهويه الفقيه (— ٢٣٨) وهو عالم خراسان تلك البلدة التي ألف فيها الكتاب فقد ثبت عنه انه قال « كان الليث بن المظفر رجلاً صالحاً ومات الخليل ولم يفرغ من كتاب العين فأحب الليث ان ينفق الكتاب كله فسمى لسانه الخليل ^(٨) » وذكر عنه انه قال « كان الخليل يعمل منه باب العين وحده وأحب الليث ان ينفق سوق

(١) المقائيس في اللغة ص ١ (٢) تركة الالباء ٥٥ (٣) المقدمة في باب اللغة .

(٤) فهرسة ما ذوا ٣٢٩ (٥) البنية ٢٦ (٦) مطبعة الاسلام الطبعة الافرنسية ١٩٠٠: ٢

(٧) الصاحب في لغة اللغة ، مطبعة المؤيد ١٣٢٨ ، ص ١٨ (٨) التهذيب ٢٧ ارشاد الاريب ٢٢٢: ٦

الخليل فصنف باقيه^(١) » وثانيهما السيرافي (٣٦٨ -) فقد قال في طبقات النحاة في ترجمة الخليل « عمل اول كتاب العين المعروف المشهور^(٢) » وهذه العبارة كما يقول السيوطي « صريحة في ان الخليل لم يكمل كتاب العين^(٣) » وثالثهما الازهري (٢٨٢ - ٣٧٠) ويدعي « انه لم ير خلافاً بين اللغويين ان الثابت المحمل في اول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن احمد وان ابن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه اياه عن فيه^(٤) » ويتبع هؤلاء عدد من العلماء^(٥)

وقد حيكت الأقاصيص حول هذه الفكرة فروي عن الحسن بن علي المهلبى ان الخليل كافأ الليث بالكتاب فخرقه امرأه الليث نكابة بزوجه ، وكان قد حفظ نصفه فرغب الى العلماء ان يجمعوا النصف الآخر ، وكذلك خرج الكتاب غير متساوي التأليف^(٦) . واقوال هذه الطائفة جميعاً مردودة عند من درس الكتاب فوجد ان المأخذ عليه هي في اول الكتاب وآخره وفي باب العين وغيره من الابواب كما سنرى ، ولو انها تزيد وتنقص تبعاً للابواب .

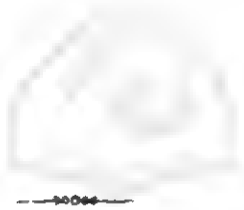
والرأي الذي ينجو من كل اعتراض وجيه قول الطائفة التي ترى ان الخليل رسم الكتاب ولم يحشه ، اي انه وضع ابواب الكتاب ورتبها ثم حصر الابنية المستعملة والمحملة دون ان يذكر معناها واشتقاقها ونذكر في اولها احمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠ - ٢٩١)^(٧) الذي يقول : « انما وقع الغلط في كتاب العين لان الخليل رسمه ولم يحشه ، ولو كانت هو حشاه لما بقي فيه شيء لان الخليل رجل لم ير مثله^(٨) » وبأخذ بهذا الرأي ابو الطيب اللغوي (توفي بعد ٣٨١) في

(١) ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠ (٢) اخبار النحويين البصريين نشره الاساذ كرنكو بيروت ١٩٣٦ ، ص ٣٨ وعنه في بنية الوعاة ٢٤٣ (٣) المزهر ١ : ٣٨ (٤) التهذيب ٣٩ (٥) ياقوت في ارشاده ٢ : ١٨٢ ، سرح الميون ، ص ١٤٤ (٦) طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء لابن المعتز ، طبعة عباس اقبال ، ١٩٣٩ ، ص ٣٨ - ٣٩ مفصلاً وعنه ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٣ ، المزهر ١ : ٣٩ ، بنية الوعاة ٢٤٥ (٧) انظر عنه في ذيل بروكلمان ١ : ٢٨١ (٨) المزهر ١ : ٣٩ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠ وكل ذلك قلاً عن أبي الطيب اللغوي .

كتاب مراتب النحويين ويقول بأن الخليل « هو الذي رتب ابوابه وتوفي من قبل أن يُشوه^(١) » وبذلك يأخذ الزبيدي (٣١٦ — ٣٧٩) . ملخص كتاب العين والمستدرک عليه حين يقول « وأكثر الظن فيه ان الخليل بوب اصله وثقف كلام العرب ثم هلك قبل كمله^(٢) » ورأي هذه الطائفة اقرب الآراء جميعاً الى الصحة وابعدها وقوعاً في الاعتراضات التي رأيناها في صدر بحثنا ، ولكنه مقتضب يقتضي الشرح وناقص لا يفي للخليل بكل حقه من الكتاب .

(تابع)

يوسف القيس



(١) المصدران السابقان (٢) المزهري ١ : ٤١ وكشف الظنون ٢ : ٣٩١ . ويحفظ ابن جني (٣٩٢) أكثر من ذلك فيقول ترجيحاً : « فان كان للخليل فيه عمل فاعلمه أولاً الى عمل هذا الكتاب ايما ولم يله نفسه » (زهرة الالباء •••) ويقرب من رأي ابن جني غير انه أوسم وأضبط رأي صاحب مقالة « كتاب العين وطبعه » في لغة العرب السنة ٤ ، الجزء الثاني آب ١٩١٤ ، ص ٥٧ . اذ يقول : « أما رأينا الخاص فهو ان مدون نس العين هو الليث وأما الذي يروي عنه اغلب ما جاء في النص فهو الخليل بن احمد كما انه هو الذي دفع الليث الى تدوينه بصورته المبهمة »

مخطوطات ومطبوعات

الفرزدق

أنشأ الأستاذ خليل مردم بك رسالةً أوجز فيها الكلام على الفرزدق ، فأشار إلى نسبه ، وأفاض في ذكر أخباره وفي الحوادث التي كان لها أثر في حياته ، ولم يغفل شيئاً من صفاته ومن أخلاقه ومن التناقض في هذه الأخلاق ، وتعرض لهواه السيامي ولعصبية العربية ، ووصف شعره الذي يمثل حياة العصر الأموي أكثر من كل شاعر إسلامي ، وتكلم على ما في هذا الشعر من آثار الإسلام والعصبية العربية والقرآن ، وعلى ما تضمنه من شوارد اللغة وفصحها ، ومن أخبار العرب وأيامهم ولم يفته ذكر ما صيغ به من صباغ بدوي ، فقد كان شعر الفرزدق سجل حياته ومرآة عصره ، وتصدى الأستاذ للمفاضلة بين الفرزدق وجبرير وذكر أقوال طائفة من الشعراء والأدباء فيها ، ثم اندفع في توضيح مواضع شتى من شعر الفرزدق مثل نخره وهجائه ومدحه ووصفه وغزله ورنائه وأدبه وحكمته ، وأرسل الكلام على كل ناحية من هذه النواحي ، وكان في كل موطن من هذه المواطن يستشهد بطائفة من شعر الفرزدق حتى يكون كلامه قريباً من الأذهان .

وختم الأستاذ خليل مردم بك رسالته بعبارة دلت على تواضعه وانصافه فقد قال : هذه دراسة موجزة للفرزدق شاعر العرب في العصر الأموي ورأس الشعراء الإسلاميين لا أدعي أنها كاملة ولكن أرجو أن تكون صحيحة .

وحقيقة القول أن القارئ يفرغ من هذه الرسالة ونصب عينيه صورة للفرزدق تمثله في كل النواحي التي أتى على ذكرها الأستاذ تمثيلاً صحيح الوجه ويغلب على الرسالة تهذيب البيان وهو عنوان تهذيب نفس واضعها عنوان أدبه السامي في حياته وأحاديثه ومجالسه

سفيان ميري

اعلام النساء

في عالمي العرب والاسلام

هذا كتاب جليل جمع فيه مؤلفه السيد عمر رضا كحالة آلافاً من أسماء النساء العربيات وسير ذوات المناقب الفضلى والمواهب الفذة منذ أيام الجاهلية حتى مشارف عصرنا الجديد ، ولقد رتب هذه الأسماء والسير ترتيباً مجمياً بدأه بالألف وانهاه بالياء وقسم هذه الحروف على صفحات كتابه الضخم الذي جاء في ثلاثة أجزاء

ولعل التوفيق الذي ظفر به السيد كحالة في وضعه هذا المعجم الطريف قد واتاه من عمله اليومي فهو من موظفي دار الكتب الأهلية في مجامع الجمع العلمي العربي في دمشق ، كان دأبه طول أيامه الهادئة البحث والتنقيب في تضاعيف الكتب المخطوطة والمطبوعة عن مشهورات النساء اللاتي خلدن آثاراً بارزة في العلم والأدب أو العمران والاحسان ، فاستطاع بما أوتيته من صبر على التنقيب ورغبة صادقة في نشر مآثر العربيات والمسلات ان يؤلف هذا السفر النفيس الذي جاء مفخرة لأمتنا العربية ، فما أحسب أمة مهما بلغت حضارتها وثقافتها في قديم الدهر وحديثه استطاعت ان تُنجب أمثال هاتيك النساء الفضليات .

وهذه العمري ظاهرة شموخ ورفعة نكاثرت بها على الزمان ونفاخرت في مساجلات ليلي الاخيلية ومطارحات فضل الشاعرة ورناء الخنساء وبطولة بنت الأزور وشم بنت الصديق ام عبد الله بن الزبير وأدب ياحثة البادية وقصائد التيمورية وأمثال ذلك كثير لا يحصى عد في كتاب الاستاذ كحالة — ما يحفز المرأة العربية المعاصرة ويهيب بها النهضة شماء شاملة تسير فيها على سنن الغواير من هؤلاء النساء البواهر فتعود اليها أمجادها .

فأنا أكبر صنع السيد عمر رضا كحالة الذي دل مؤلفه على حسن اختيار وبراعة تنقيب وأشكر المكتبة الهاشمية التي أنفقت على طبع الكتاب في هذا الزمن العصيب الذي اشتدت فيه أزمة الطباعة والورق .

وراد سلكيني

آراء وأنباء

تراجم الرجال

تاريخ القرن الثالث عشر — إلى رجال العلم وحمله الأعلام

لا يخفى أن أول من صنف في تراجم الرجال من علماء وادباء وامراء ووجهاء هو قاضي القضاة ابن خلكان الذي بدأ تاريخه من الهجرة النبوية وانهى فيه الى اثناء قرنه السابع ، ثم جاء بعده الإمام الحافظ ابن حجر فوضع مصنفًا في تراجم رجال القرن الثامن من ٧٠١ — ٨٠٠ ثم تلاه العلامة الحافظ السخاوي فصنف كتابًا في تراجم رجال القرن التاسع من ٨٠١ — ٩٠٠ ثم جاء العلامة نجم الدين الغزي فألف تاريخه في رجال القرن العاشر من ٩٠١ — ١٠٠٠ ثم تلاه الأديب الكبير السيد محمد امين المحبي فوضع مؤلفًا في تراجم رجال قرنه الحادي عشر من ١٠٠١ — ١١٠٠ ثم جاء بعده مفتي دمشق الاسبق السيد محمد خليل المرادي فوضع تاريخًا لرجال قرنه الثاني عشر من ١١٠١ — ١٢٠٠ وقد طبع اكثر هذه الكتب وانتفع بها .

ولقد كان هذا العاجز منذ أربعين سنة مولعًا بأكمل هذه السلسلة التاريخية داعيًا إلى وضع تاريخ لرجال القرن الثالث عشر من ١٢٠١ — ١٣٠٠ فجمعت في نحو سنتين نحو مائتي ترجمة ببضتها في مجموع أحفظه حتى الآن وفيه الكثير من امر دمشق ومصر و نابلس وحمص وقليل من علماء العراق والحجاز واليمن وحلب و حماة و طرابلس ثم فترت المهمة فكنت في هذه المدة الطويلة ألحق بذلك المجموع ما يقع في يدي من التراجم كلما سنحت لي فرصة ، وربما بلغ الجميع حتى الآن ما يزيد على ثلاثمائة ترجمة لمشاهير القرن الثالث عشر ، واني اعتقد بأن مجموعي لم يزل ناقصًا من تراجم بعض رجال ذلك القرن ، وهذا ما يدعوني الى ان اعلن على صفحات الجرائد والمجلات العلمية رجائي من رجال العلم وحمله الأعلام بأن يتحفوني بما لديهم وما تصل اليه ايديهم من تراجم من وقعت وفاتهم في القرن المذكور من سنة ١٢٠١ — ١٣٠٠ بما يوافق نهج المحبي والمرادي المذكورين اتمامًا لهذه السلسلة التاريخية البديعة فان في ذلك تجليد ذكرى الأسلاف الصالحين والأجداد .

محمد جميل الشطي

عدي وعدي

قرأت في الجزء الأول من المجلد السادس عشر من مجلة المجمع العلمي كلمة الزميل الاستاذ المغربي المعنونة بـ (الرادبو وأثره في نشر اللغة) ولما بلغت الى تعبير (الديبلوماسيين) الجديد وتقسيمهم الناس الى محارب وحيادي او مسالم ولا محارب واقتراحه استعمال 'عدي' مضمومة العين للمحارب و'عدي' مكسورة العين للامحارب أعجبت بما انفق له من وقوع نظره على هاتين الكلمتين اللتين تصلحان للقيام مقام كلتي (المحارب) و (اللامحارب) وقلت رب اتفاق خير من تعمد ورب صدفة خير من يعاد. رأى هذه التفرقة بين هذين الحرفين في محيط المحيط للبستاني وفي أقرب الموارد وانه بعد مراجعة اللسان والتاج والصحاح والاساس والمصباح لم يعثر في هذه المعاجم على هذه التفرقة وبقي في نفسه شيء لعدم وقوفه على المصدر الذي اعتمده صاحبها محيط المحيط واقترب الموارد في هذه التفرقة فذكرت انني كنت قد وقفت على هذه التفرقة في عهد غير بعيد في المخصص في السفر الثالث عشر الصفحة ١٣٣ من المخصص: «ابن السكيت: قوم عدي وعدي بالكسر والضم فاذا دخلوا الهاء ضموا أوله فقالوا: عداة. يجي: العدي بالضم الأعداء الذين تقاتلهم. وبالكسر الذين لا تقاتلهم. حكاه عنه ابن جني»

التشاور والتضارس

وسيفي هذه الصفحة من هذا السفر ما يقوم مقام (المحارب) و (اللامحارب) تشاورس القوم تعادوا. وتضارس القوم تعادوا وتجاربوا

سليمان ظاهر

استدراك

وقعت في صدر الجزء الأول هفوات في أسماء اعضاء المجمع دعا اليها انقطاع المواصلات بين البلاد فدخل الاستاذان الشيخ خليل الخالدي والدكتور سعيد ابو جرة في الراحلين ومازالا والله الحمد في الحياة مدّة الله في عمرهما. وسقط اسم الاستاذ الشيخ محمد بهجت الاثري من بين اعضاء بغداد وهو مازال عضواً مؤزراً وما نسي القراء ايادية البيض على الآداب.

مجلدات الشيخ علي العربي

الجزء العاشر تشرين الاول سنة ١٩٤١ شوال سنة ١٣٦٠

ابن حزم في (سير النبلاء)

٢

[مؤلفاته]

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام وكان احد المجتهدين : « مارأيت في كتب الإسلام من العلم مثل المحلى لابن حزم وكتاب المغني للشيخ موفق الدين »

قلت : لقد صدق الشيخ عز الدين ، وثالثهما السنن الكبير للبيهقي ورابعهم [كذا] التمهيد لابن عبد البر . فمن حصل هذه الدواوين وكان من أذكى المفتين ، وادمن المطالعة فيهم [كذا] ، فهو العالم حقاً .
ولابن حزم مصنفات جليلة اكبرها :

كتاب الايضال الى فهم كتاب الخصال (خمس عشرة الف ورقة) -
وكتاب الايضال الحافظ لجل شرائع الاسلام (مجلدان) - وكتاب المحلى بالآثار في شرح المحلى بالاختصار (ثماني مجلدات) - وكتاب حجة الوداع (مئة وعشرون ورقة) - وكتاب قسمة الخمس في الرد على إسماعيل القاضي (مجلد) - وكتاب الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض

عنها (يكون عشرة آلاف ورقة لكن لم يتمه) - وكتاب الجامع في صحيح الحديث بلا أسانيد - وكتاب التلخيص والتخليص في المسائل النظرية - وكتاب ما انفرد به مالك أو أبو حنيفة أو الشافعي - ومختصر الموضح لأبي الحسن المغلس^(١) الظاهري (مجلد) - وكتاب اختلاف الفقهاء الخمسة مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وداوود - وكتاب التصفح في الفقه (مجلد) - وكتاب التبيين في هدى^(٢) علم المصطفى أعيان المنافقين (ثلاثة كراريس) - وكتاب الإملاء في شرح الموطأ (الف ورقة) - وكتاب الإملاء في قواعد الفقه (الف ورقة أيضاً) - وكتاب الإجماع (مجلد) - وكتاب الفرائض مجلد - وكتاب الرسالة البلقافي الرد على محمد^(٣) عبد الحق بن محمد الصقلي (مجلد) - وكتاب الأحكام لأصول الأحكام (مجلدان) - وكتاب الفصل في الملل والنحل (مجلدان كبيران) - وكتاب الرد على من اعترض على (الفصل) له - وكتاب اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين (مجلد كبير) - وكتاب

(١) هو أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلس الداوودي الظاهري البغدادي الفقيه أحد علماء الظاهر وإليه انتهت رئاسة الداووديين في وقته . ولم ير مثله فيما جدد وكان فاضلاً عالماً نبلاً ساداً ثقة مقدماً عند جميع الناس . ومثله ببغداد على نهر مهدى يقصده العالم من جميع البلدان . توفي سنة ٣٢٤ وله كتاب الموضح (جوابات) الذي اختصره ابن حزم - فهرست من ٣٠٦ (سنة ٥١٣٤هـ) وشذرات الذهب (٢) كذا في الأصل ولعلها زائدة أو محرفة عن (هل)

(٣) كذا ولم نهند إلى معرفته فيما بين أيدينا من المظان ، وقد أدركنا الاسم على كل الوجوه التي تقدر أنه مصحح عنها : فقتنا عن محمد بن عبد الحق ، وأبي محمد بن عبد الحق ، وأبي محمد عبد الحق فلم نجد من يمكن أن يكون مقصوداً ولو لم يهمل اسم الأب غير أبي محمد عبد الحق بن هرون الفقيه الصقلي أحد المشايخ الكبار ، رحل إلى المشرق وأخذ عنه كثيرون منهم سليمان بن يحيى بن عثمان بن أبي الدنيا أحد البدول بقرطبة ، وخلف بن إبراهيم المقرئ المعروف بأبن الحصار الخطيب بالمسجد الجامع بقرطبة فقد رحل إلى صقلية وجالس فيها عبد الحق هذا - انظر (المكتبة الصقلية المطبوعة سنة ١٨٨٧ ليزنغ) : الديول من ٢٦ ٢٨٠

الرد على ابن زكريا الرازي (مئة ورقة) - وكتاب الترشيد في الرد على كتاب الفريد لابن الراوندي في اعتراضه على النبوات (مجلد) - وكتاب الرد على من كفر المتأولين من المسلمين (مجلد) - وكتاب مختصر في علل الحديث (مجلد) - وكتاب التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامة (مجلد) - وكتاب الاستجلاب (مجلد) - وكتاب نسب البربر (مجلد) - وكتاب نقط العروس (مجلد) ٠٠٠ وغير ذلك .

وماله في جزء أو كراس :

مراقبة أحوال الإمام^(١) من ترك الصلاة عمداً - ورسالة المعارضة - "قصر الصلاة - ورسالة التأكيد - "ما وقع بين الظاهرية وأصحاب القياس - وفضائل الأندلس - والعتاب على أبي مروان الخولاني - ورسالة في معنى الفقه والزهد - ومراتب العلماء وتوابعهم - والتلخيص في أعمال العباد - والإظهار لما شنع به على الظاهرية - وزجر الغاوي (جزءان) - والنهذ الكافية - والنكت الموجزة في نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد (مجلد صغير) - والرسالة اللازمة لأولي الأمر - ومختصر الملل والنحل (مجلد) - والدرة فيما يلزم المسلم (جزءان) - ومسألة في الروح - والرد على إسماعيل اليهودي الذي ألف في تناقض آيات النصائح المنجية - والرسالة الصمادية في الوعد والوعيد - ومسألة الإيمان - ومراتب العلوم - وبيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل - وترتيب سوالات عثمان الدارمي لابن معين - وعدد

(١) لعل إسقاط الواو هنا من سهو الناسخ

مالك صاحب في مسند بقي^(١) - تسمية شيوخ مالك -^(٢) السيرة والأخلاق (جزءان) - وبيان الفصاحة والبلاغة^(٣) رسالة في ذلك لابن حفصون - ومسألة هل السواد لون أو لا - والحد والرسم - وتسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر - وشيء في العروض - ومؤلف في الظاء والضاد - والتعقب على الأقليلي في شرحه لدبوان المتنبي - وغزوات المنصور بن أبي عامر - وتأليف في الرد على أنجيل النصراني ... وأشياء سوى ذلك .

ولابن حزم رسالة في الطب النبوي ذكر فيها أسماء كتب له في الطب منها :

مقالة السعادة - ومقالة في شفاء الضد بال ضد - وشرح فصول بقرط - وكتاب بلغة الحكيم - وكتاب حد الطب - وكتاب اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة - وكتاب في الأدوية المفردة - ومقالة في المحاكاة بين التمر والزبيب - ومقالة النحل .

[شيء من ابتلائه بالناس]

وقد امتحن لتطويل لسانه في العلماء وشرذ عن وطنه فنزل بقرية له وجرت^(٤) له أمور ، وقام عليه جماعة من المالكية وجرت بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرات ومناقرات ، ونفروا منه ملوك الناحية فأقصته الدولة وأحرقت مجلدات من كتبه ، وتحول إلى بادية لبلة في قريته .

قال ابو الخطاب بن دحية : كان ابن حزم قد برص من أكل اللبان

(١) لل إسقاط الواو هنا من سهو الناسخ أيضاً (٢) لل هنا قصاً (٣) في الأصل : ووجدت

وأصابه زمانة وعاش ثنتين وسبعين سنة غير شهر . قلت : وكذلك كان الشافعي رحمه الله يستعمل اللبان لقوة الحفظ فولد له رمي الدم .
قال أبو العباس بن^(١) العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين . »

[عود إلى سبب طلبه العلم]

وقال أبو بكر محمد بن^(٢) طرخان التركي : قال لي الإمام أبو محمد عبد الله ابن محمد يعني والد أبي بكر بن العربي : « أخبرني أبو محمد بن حزم : أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة فدخل المسجد فجلس ولم ير كعب ، فقال له رجل : قم فصل تحية المسجد - وكان قد بلغ ستاً وعشرين سنة - . قال : فقامت فركعت فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة دخلت المسجد فبادرت بالر كوع فقبل لي : اجلس ليس ذا وقت صلاة ، وكان بعد العصر . قال : فانصرفت وقد خزيت وقلت للأستاذ الذي رباني : دلني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دحون ، قال ، فقصدته وأعلمته بما جرى فدلني على موطأ مالك ، فبدأت به عليه ، وتتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحواً من ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظرة . »

[سماع ابن العربي عليه]

قال أبو بكر : ثم قال لي ابن العربي : « صحبت ابن حزم سبعة أعوام وسمعت منه جميع مصنفاته سوى المجلد الأخير من كتاب الفصل وهو من ستة مجلدات وقرأنا عليه من كتاب الإيصال أربع مجلدات في سنة ست

(١) كلمة ابن ساقطة من الأصل والتصحيح عن تذكرة الحفاظ للذهبي

(٢) في الأصل : محمد طرخان ، والتصويب عن إرشاد الأريب (٨٨:٥) طبع (أوروبا)

وخمسين وأربعمائة ، وهو أربعة وعشرون مجلداً ، ولي منه إجازة غير مرة .
[علمه ولجواه بالناس]

قال أبو مروان بن حيان : « كان ابن حزم رحمه الله حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في أنواع النعاليق القديمة من المنطق والفلسفة ، وله كتب كثيرة لم يخل فيها من غلط لجرأته في التسور على الفنون لاسيما المنطق ، فإنهم زعموا انه زل هنالك ، وضل في سلوك المسالك ، وخالف ارسطاطاليس واضع الفن مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض ، ومال أولاً إلى النظر على رأي الشافعي وناضل عن مذهبه حتى وسم به ، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء ، وعيب بالشذوذ ، ثم عاد إلى قول^(١) أصحاب الظاهر فتقحه وجادل عنه وثبت عليه إلى أن مات . وكان يحمل علمه ويمجادل عنه من خالفه ، على استرسال في طباعه وبذل بأسراره ، واستناد إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء : « لَيَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ »^(٢) فلم يك يلفظ صدعه بما عنده بتعريض ولا بتدريج ، بل يصك به من عارضه صك الجندل ، وينشقه إنشاق الخردل ، فتتفر عنه القلوب ، وتوقع به الندوب حتى استهدف لفقهاء وقته فتمالؤوا^(٣) عليه وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو منه ؛ ففطق الملوك يقصونه عن قريبهم ويسيرونه عن

(١) في الأصل : حول ، والصواب ما أثبتناه مراعين السياق وما في المصادر

(٢) أثبتنا ياء النية في التعليق كما هي في الأصل لأنها قراءة أبي عمرو بن العلاء وابن كثير وشعبة ، وإن كانت قراءة اليوم الآية بناء الخطاب كما قرأها حمزة والكسائي ونافع والبقية ، انظر ص ١١٧

(على الهامش) وص ٢١٧ من شرح ابن القاصح على الشاطبية (طبع سنة ١٢٩٣ هـ)

(٣) في الأصل : فمالوا ولا معنى لها والتصحيح عن تذكرة الحفاظ

بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره : بلدة من بادية لبلة ، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع ، يث علمه فيمن ينتابه من بادية بلده من عامة المقتبسين من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة : يحدّثهم ويفقههم ويدارسهم ؛ كمل من ^(١) مصنفاته وقربيع لم يعد أ كثرها [عبثة] ^(٢) باديته لهذا الفقهاء فيها حتى لا تحرق بعضها بأشيلية ومزقت علانية ، وأ كثر معايبه - زغمو - عند المنصف ^(٣) جهله بسياسة العلم التي هي أعوص [من إتقانه] ^(٤) وتخلّفه عن ذلك على قوة سبجه في غماره . وعلى ذلك فلم يكن بالسليم ^(٥) من اضطراب رأيه ومغيب شاهد علمه عنه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسؤال فينجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء . وكان مما يزيد في شينه تشيعه لأمرأى بنى أمة ماضيه وبقايعهم واعتقاده لصحة إمامتهم ، حتى لنسب إلى النصب ^(٦)

[عود إلى مؤلفاته]

قلت : ومن تواليفه كتاب تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل . وقد أخذ المنطق - أبعده الله من علم - عن محمد بن الحسن المذحجي وأمعن فيه فزلزله في أشياء .

[رأي الذهبي فيه]

ولي أنا ميل إلى أبي محمد لمحبهته في الحديث الصحيح ومعرفته به وإن كنت لا أوافق في كثير مما يقوله في الرجال والعلل والمسائل البشعة في

(١) في الأصل : من كل وهي تعريف وإن كان لها وجه متكلف إلا أن كلمة ابن حبان هذه هي على ما أثبتته في المصادر وكما في تذكرة الحفاظ للمؤلف نفسه (٢) الزيادة عن تذكرة الحفاظ

(٣) في الأصل وفي تذكرة الحفاظ : المصنف والتصحيح عن إرشاد الأريب

(٤) محل هاتين الكلمتين بياض في الأصل الآم ، أكلنا النص من إرشاد الأريب

(٥) في الأصل : بالسليم والتصحيح عن إرشاد الأريب

الأصول والفروع . وأقطع بخطئه في غير ما مسألة ؛ ولكن لا أكفره ولا أضلله وأرجو له العفو والمسامحة والمسلمين ، وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه . ورأيت قد ذكر قول من يقول : أجل المصنفات الموطأ فقال : « بل أولى الكذب بالتعظيم صحيح البخاري ومسلم وصحيح ابن السكن ومتقي ابن الجارود والمتقى لقاسم بن أصبغ ومصنف أبي جعفر الطحاوي . (قلت : ما ذكر سنن ابن ماجه ولا جامع أبي عيسى فإنه ما رأتهما ولا أدخلهما إلى الأندلس إلا بعد موته .) ثم قال : ومسند البزار ومسند ابن أبي شعبة ومسند احمد بن حنبل ومسند إسحق ومسند الطيالسي ومسند الحسن بن سفيان ومسند ابن سنجر^(١) ومسند عبد الله بن محمد المسندي ومسند يعقوب ابن شعبة ومسند علي بن المدبني ومسند ابن أبي غرزة وما جرى مجرى هذه الكتب التي أفردت لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم صرفاً .

ثم الكتب التي فيها كلامه وكلام غيره مثل مصنف عبد الرزاق ومصنف أبي بكر بن أبي شعبة ومصنف بقي بن مخلد ، وكتاب محمد بن نصر المروزي وكتاب ابن المنذر الأكبر والأصغر ، ثم مصنف حماد بن سلمة وموطأ مالك بن أنس وموطأ ابن أبي ذيب وموطأ ابن وهب ومصنف وكيع ومصنف محمد بن يوسف الفريابي ومصنف سعيد بن منصور ومسائل أحمد بن حنبل ، وفقه أبي عبيد وفقه أبي ثور .»

قلت : ما أنصف ابن حزم ، بل رتبة الموطأ أن يذكر تلو الصحيحين مع سنن أبي داود والنسائي ، لكنه تأدب وقدم المسندات النبوية الصرفة ؛ وإن للموطأ لموقعاً في النفوس ومهابة في القلوب لا يوازيها شيء .

(١) في الأصل : ابن حجر وهو تصحيح والتصحيح عن الرسالة المستطرفة للكتاني

[مرويات الذهبي بالسند إلى ابن حزم]

كتب إلينا المعمر العالم أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون من مدينة تونس^(١) عام سبع مائة عن أبي القاسم أحمد بن يزيد القاضي عن شريح بن محمد الرعيني : أنبأنا أن أبا محمد بن حزم كتب إليه قال :

أنبأنا يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود أن^(٢) قاسم بن أصبغ أخبرنا إبراهيم ابن عبد الله : أخبرنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصوم جنة » أخرجه مسلم عن أبي سعيد الأشج عن وكيع . وبه^(٣) قال ابن حزم : أخبرنا أحمد بن محمد الجسور ، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي دليم^(٤) : أخبرنا محمد بن وضاح : أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة : أخبرنا يزيد بن هرون : أخبرنا حميد عن بكر بن عبد الله المزني عن ابن عمر^(٥) قال : « إنما أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج وأهلنا به معه ، فلما قدم قال : (من لم يكن معه هدي فليحلل) فأحل الناس إلا من كان معه هدي ، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هدي ولم يحل . »

وبه قال ابن حزم : حدثني أحمد بن عمر العذري : أخبرنا عبد الله بن الحسين بن عقاب : أخبرنا عبيد الله بن محمد السقطي : أخبرنا أحمد بن جعفر ابن سلم : أخبرنا عمر بن محمد الجوهري : أخبرنا أحمد بن محمد الأثرم :

(١) في تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٢٩ أبو محمد بن هارون بن يونس ، وهو تصحيف .

(٢) في تذكرة الحفاظ : أنبأنا قاسم . . .

(٣) أي بالسند المتقدم وهو اصطلاح لعلماء الحديث . وسيربك مرتين آخرين

(٤) في الأصل : بن ولي ، والتصويب عن الصلة لابن بشكوال ج ١ ص ٢٤

(٥) في الأصل أبي عمر وهو خطأ لأن للزني — كما في تهذيب التهذيب — روى عن ابن عمر

أخبرنا أحمد بن حنبل : أخبرنا هشيم : أنبأنا حميد : أخبرنا بكر بن عبد الله : سمعت أنس بن مالك قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبي بالحج والعمرة جميعاً . قال بكر : فحدثت بذلك ابن عمر فقال : « لبي بالحج وحده . » وقع لنا هذا في مسند أحمد ، فأنا وابن حزم فيه سواء .

[من شمره]

وبه قال ابن حزم فيما أحرق له المعتضد بن عباد من الكتب يقول :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
يسير معي حيث استقلت ركائي
دعوني من إحراق رق^(١) وكاغد
والأفعودوا في المكاتب بدأة
* كذاك النصراري يجرقون - إذاعلت

ولا بن حزم : ^{مَحَقَّقٌ}

* أشهد الله والملائك أنني
* حاش لله أن أقول سوى ما
* كيف يخفى على البصائر هذا
فقلت مجيباً له :

* لو سلمت من العموم الذي نه
* وترطبتكم فكنتم يلبستم^(٢)

لم قطعاً تخصبصه وبقينا
لأينا لكم شفوفاً مبينا

(١) في الأصل : ووق ، والتصحيح عن إرشاد الأريب وغيره

(*) الآيات المصحوة بهذه العلامة تمردت بها هذه الرسالة ولم أجدها في مصدر آخر مما كنت اطالع عليه حين دراستي ابن حزم ، وهي مزية جديرة بالتبني عليها فإن بقية المصادر تعد أمهات في هذا الموضوع (٢) كذا في الأصل ، ولم نهند إلى الصواب فيه ولا وجدنا اليتين في مصدر من المصادر .

ولابن حزم :

مناي من الدنيا علوم أبثها
دعاء إلى القرآن والسنن التي
* وألزم أطراف الثغور مجاهداً
* لألقى حمي مقبلاً غير مدبر
* كفاحاً مع الكفار في حومة الوغى
* فيارب لا تجعل حمي بغيرها
ومن شعره رحمه الله :

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدر كنا
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة
إلى تبعات في المعاد وموقف
حين لما ولي وشغل لما أقى
حصاننا على هم وإثم وحسرة
كأن الذي كنا نسر بكونه
وله على سبيل الدعابة وهو يماشي أبا عمر بن عبد البر وقد رأى شاباً مليحاً
فأعجب ابن حزم فقال أبو عمر : « لعل ما تحت الثياب ليس هناك » فقال :
وذي عذل فيمن سباني حسنه^(١) يطيل ملامي في الهوى ويقول :
أمن حسن وجه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم ، انت قتيل ؟

(١) في الأصل : الناير ولا معنى لها ولعل (تجمل) في أول البيت أصلها (تجمل) (٢) في الأصل :
فيما سباني جبه ، ولم رضها لضعفها ولترجح تصحيحها لدينا فأثبتنا الرواية المجمع عليها في المصادر كافة

فقلت له أسرفت في اللوم فأتدفعندي رد لو أشياء طویل
 ألم تر أني ظاهري وأنا في على ما بدا حتى يقوم دليل
 وأنشد أبو الفهم بن أحمد السلي : أنشدنا ابن قدامة : أنشدنا ابن البطي :
 أنشدنا أبو عبد الله الحميدي : أنشدنا أبو محمد علي بن أحمد لنفسه :
 لا يثبتن حاسدي إن نكبة عرضت فالدهر ليس على حال بمترك
 ذو الفضل كالبرطورا تحت ميقعة وتارة في ذرى تاج على ملك
 وشعره فحل كما ترى ، وكان ينظم على البديهة ^(١) ومن شعره :
 أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
 ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ماضع من ذكرى النهب
 ولي نحو أكناف العراق صباية ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
 فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب
 هنالك بدرى أن البعد قصة وأن كساد العلم آفته القرب
 وله :

* أنا ثم انت عن كتب الحديث وما أتى عن المصطفى فيها من الدين
 * كسلم والبخاري اللذين هما شدا عرى الدين من نقل وتبيين
 * أولى بأجر وتعظيم ومحمدة من كل قول أتى من رأيي سخون ^(٢)
 * يا من هدى بهما اجعلني كمثلهما في نصر دينك محضاً غير مفتون

(١) في الأصل : البديهة ، ولم أرها في كتب اللغة . (٢) سخون — على : قاموس الأعلام — هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الملقب بسخون ، فاض ، فقيه ، انتهت إليه الرياسة في العلم بالمغرب . كان زاهداً لا يهاب سلطاناً في حق يقوله . أصله شامي من حمص ، ومولده في القيروان وولي القضاة سنة ٥٢٣٤ هـ فاستقر إلى أن مات . كان رفيع القدر عفيفاً في النفس مات سنة ٥٢٦ هـ وله ثمانون سنة .

[من كلامه]

قال ابن حزم في تراجم أبواب صحيح البخاري : « منها ما هو مقصور على آية إذ لا يصح في الباب غيرها ، ومنها ما بينه بتبويبه على أن في الباب حديثاً يجب الوقوف عليه ، لكنه ليس من شرط ما أُلّف عليه كتابه ، ومنها ما يبوب عليه ويذكر نبذة من حديث قد سطره في موضع آخر ، ومنها أبواب تقع بلفظ حديث ليس من شرطه ويذكر في الباب ما هو في معناه » وقال في أول الأحكام^(١) : « أما بعد فإن الله ركب في النفس الإنسانية قوى مختلفة ، فمنها عدل يزين لها الانصاف ويحبب إليها موافقة الحق ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ! كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوَالِدَ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ » ومنها غضب وشهوة يزينان لها الجور ويعميانه عن طريق الرشد [وقال تعالى] : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ [فَحَسْبُ جَهَنَّمَ] وقال [تعالى] : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » فالفاضل يسر^(٢) لمعرفته [بمقدار ما منحه الله تعالى] والجاهل يسر^(٣) لما لا يدري حقيقة وجهه ولما^(٤) فيه وباله ، [في أخراه وهلاكه في معاده] ومنها فهم يلبح لها^(٥) الحق من قريب وبنير [لها في] ظلمات المشكلات فيرى به^(٦) الصواب ظاهراً جلياً ، ومنها جهل يطمس^(٧) عليها الطرق^(٨) ويساوي عندها [بين] السبل فتبقي

(١) النفل الآتي كثير التعريف وقد أصلحناه وأكملنا قصه من مقدمة الأحكام ص ٤ - ٥ .
[مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥] وما بين معقوفين هو ما نقص في نسختنا . (٢) في الأصل : يسير به . . . (٣) في الأصل : وبما . (٤) في الأصل : له . (٥) في الأصل : بها .
(٦) في الأصل : بطش ولا معنى لها . (٧) في الأصل : الطريق .

النفس في ^(١) حيرة تتردد وفي ريب تتلدد ويهجم بها على احد الطرق المجانبة للحق [المنكبة عن الصواب] تهوراً وإقداماً [او جبناً او إجماماً] او إلفاوسوء اختيار] ، قال تعالى : « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » [وقال تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] ومنها قوة التمييز التي سماها الأوائل المنطق ، فجعل لها خالقها بهذه القوة سبيلاً إلى فهم خطابه [عز وجل] وإلى معرفة الأشياء على ما هي عليه ، وإلى إمكان التفهم [الذي به ترتقي درجة الفهم ويشخلص من ظلمة الجهل] فيها تكون معرفة الحق من الباطل ، [قال تعالى : « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ »] ومنها قوة العقل التي تعين النفس المميّزة على نصرة العدل [وعلى إثارة ما دلت عليه صحة الفهم وعلى اعتقاد ذلك علماً وعلى إظهار باللسان وحرركات الجسم فعلاً] ، وبهذه القوة التي هي العقل تتأيد النفس الموفقة لطاعته على كراهية الخود عن الحق وعلى رفض ما قاد إليه الجهل والشهوة والغضب المولد للعصبية وحمية الجاهلية [فمن ^(٢) أتبع ما أناره له العقل الصحيح نجا وفاز ، ومن عاج عنه هلك] وربما أهلك] . قال تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » فأراد بذلك العقل . أما المضغة المسماة قلباً ^(٣) فهي لكل أحد ، [متذكر وغير متذكر ولكن لما لم ينتفع] غير العامل [بقلبه صار] كمن لا قلب له . «

وكلام ابن حزم كثير ولو أخذت في إيراد طرفه وماشذ به لطال الأمر .

(١) في الأصل : في النفس حيرة . (٢) في الأصل : فتى (٣) في الأصل : أما مضغة القلب

[عود إلى ولده]

قال ابو القاسم بن بشكوال الحافظ في الصلة له : قال القاضي صاعد ابن أحمد : « كتب إلي ابن حزم بخطه يقول : ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي في ربيع منية المغيرة قبل طلوع الشمس آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة بطالع العقرب ، وهو اليوم السابع من نوير . »

[وفاته]

قال صاعد : « ونقلت من خط ابنه أبي رافع : أن أباه توفي عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين واربعمائة فكان عمره إحدى وسبعين سنة وأشهر أرحمه الله تعالى »

[عود إلى شعره]

ومن نظم أبي محمد بن حزم :

* لم أشك صدأ ولم أذعن بهجران	ولا شعرت مدي دهري بسلوان
* أسماء لم أدر معناها ولا خطرت	بوماً عليّ ولا جالت ببيداني
* لكلماتي الأدوى ^(١) الذي عصفت	عليّ أرواحه قدماً فأعياي
* تفرق لم تزل تسري طوارقه	إلى مجامع أحبابي وخلياني
* كأنما البين بي يأتني حيث رأي	لي مذهباً فهو يتلوني ويغشاني
* وكنت أحسب عندي للنوى جلدأ	إذا عتأ ^(٢) في فؤادي شجوها العاني
* فقابلتني بألوان غدوت بها	مقابلاً من صباباتي بألوان

(١) في الأصل : داي الأدواء التي

(٢) في الأصل : عني . وليست هذه الأبيات في مصدر آخر فقابلها به فأنبتنا ما رجناه

[من مات في سنة وفاته]

ومن مات مع ابن حزم في السنة : الحافظ أبو الوليد الحسن بن محمد
الدربندي^(١) ، والفقير أبو القاسم سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج قاضي
الجماعة بقرطبة ، والحافظ عبد العزيز محمد بن محمد بن عاصم النخشي^(٢) ،
وشيوخ العربية أبو القاسم عبد الواحد بن علي بن برهان ببغداد ، ومسند الوقت
أبو الحسين محمد بن أحمد بن محمد بن [أحمد بن^(٣)] حسنون النرسي ، والمحدث
أبو سعيد محمد بن علي بن محمد الحشاش النيسابوري ، والوزير عميد الملك
محمد بن منصور الكندري .

[عود إلى شعره]

ولا بن حزم

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت
فقلت هل عيبتهم لي غير أني لا
وأني مولع بالنص لست إلى
لا أثنى لمقاييس^(٤) أقول بها
يابرد ذا^(٥) القول في قلبي وفي كبدي
دعهم يعضوا على صم الحصى كدأ
أقول بأل رأئي إذ في رأيهم فتن^(٤)
سواء أنحو ولا في نصره أهن
في الدين بل حسبي القرآن والسنن
وبأسروري به لو أنهم فطنوا
من مات من قوله عندي له كف

« تمت الرسالة »

(١) في الأصل : ابن الوليد الحسن بن محمد الدرندبي والتصويب عن تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٢٩

(٢) في الأصل البخني والتصويب عن شذرات الذهب (٣) الزيادة عن تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٢٩

(٤) انظر هذه القصيدة كاملة في كتابي (ابن حزم الأندلسي ورسائله في المفاصلة بين الصحابة) ص

١٢٩ . وفيها هناك بدل الوري : العدي ، وبدل فتن : أفن (ص ٦٧) ، وبدل لمقاييس أقول : نحو

آراء يقال . (٥) في الأصل : ذي . والتصحيح عن المصدر السابق

منه سمع هذه الرسالة على الذهبي

نص السامعين للذين ختمت بهما هذه الرسالة

١ — قال الذهبي : سمع من لفظي هذه الترجمة المولى العلامة قاضي القضاة حسان الدين حسن بن رمضان القرمي ، وفتاه سيف الدين بهادر ، والشيخ عماد الدين ابو بكر ابن أحمد بن أبي الفتح بن السراج ، والشيخ أمين الدين محمد بن علي بن حسن الألفي^(١) المالكي : في شعبان سنة أربع وثلاثين وسبعائة . وكتب مؤلفها محمد بن عثمان بن الذهبي عفا الله عنه . هـ

٢ — مكتوب على هامش الأم ما لفظه :

سمع ترجمة ابن حزم رحمه الله على الشيخ شمس الدين الذهبي صاحب التاريخ : الشيخ الإمام العالم شمس الدين محمد بن عبد الله بن الحب والفقير الفاضل علاء الدين علي بن عبد المؤمن بن علي المغربي . وكل الأسماع بقراءته في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعائة بدمشق ، ولها^(٢) ولنا جميع التاريخ . والله الحمد وصلى الله على سيدنا محمد وآله . وكتب إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد بن جماعة * .

سعيد الافغاني

(١) في الأصل : أمير الدين . . . الألفي ، والتصويب عن شذرات الذهب ٦ : ٢٩٢ وذيل تذكرة الحفاظ ص ١٦٨ والمحدث المذكور مات سنة ٧٨٦
(٢) نرجح أن (ولها ولنا) مصعقة عن (وأجاز لنا) . والقصود بقوله (جميع التاريخ) : تاريخ الإسلام الكبير للذهبي ومنه أجزاء في المكتبة الأحمديّة بحاب
(*) عثرنا بعد طبع الرسالة على اسم كتابين للذهبي ما ترنا التنبيه عليها هاتينذيلاً للفصل الخاص بمؤلفاته : في المكتبة الصقلية (Alia Biblioteca Arabo - Sicula) (ليون ١٨٨٧ م) ص ٦٢ م : أن للذهبي مختصر كتاب (إنباء الرواة على أنباء النجاة) تأليف أبي الحسن علي بن يوسف الشيباني .
وفي ص ٢ من مقدمة (كتاب المغني والشرح الكبير — مطبعة النار سنة ١٣٢١ هـ) : أن الذهبي أفرد بالتأليف سيرة الشيخ موفق الدين صاحب (المغني) أحد الكتب الأربعة الجليلة التي لا غنى للمجتهد ولا لدني عنها — على ما سرك من وأي الذهبي عند أول الكلام على مؤلفات ابن حزم . وأرجح أن هذه السيرة مما ضمنه أيضاً كتابه الجليل (سير النبلاء) .

مميزات بني أمية

٢

خصائص قواد الأمويين وعملهم

وما كان خلفاء بني أمية فقط ممتازين بأموال تفردوا بها على من سواهم بل كان رجالهم وقوادهم وعملهم لا يشبهون في هذا المعنى عمال بني العباس . فان عمال العباسيين كانوا يشتغلون لأنفسهم على الغالب ، وعمال الأمويين يشتغلون لدولتهم ، فقد رأينا الحجاج بن يوسف الثقفي مثلاً يعمل كل ما يجب ان يعمل لدولته ورأينا احمد بن طولون في الدور العباسي الثاني يعمل لنفسه أولاً ثم لدولته ، وكان عمله لنفسه عظيماً جداً لم يؤثر بعضه عن عامل من عمال بني أمية . وعلى ماظهر من تعصب الأمويين ، وكانوا لا يوسدون الولايات الا للعرب ، ولا يأمنون على سياستهم الا العرب ، كنت تراهم في المسائل الأخرى أعجوبة في تساهلهم . أخذ بعضهم عبيد الله بن زياد لاعتماده على الفرس في مسائل الأموال فقال مدافعاً عن نفسه : كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج ، فان أغرمت عشيرته أو طالبته أو غرمت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله وانا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، واهوت بالمطالبة منكم ، مع اني قد جعلتكم أمناً عليهم لئلا يظلموا احداً .

وما كان يخلو قائد من قواد الأمويين من مزايا غريبة تدهشك في جملة ما تدهش من سيرته ، فقد اشتهر الحجاج مثلاً على عظيم سياسته بأموال لا يخطر بالبال ان مثله يفكر فيها ، اشتهر باصلاح الموازين والخراج والزراعة ، ووضع الحركات والاعجام في المصاحف ، لئلا يلبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن واتخذ دار الضرب اسك النقود فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من

التبر وخلاصة الزيوف والسقوفة والبهرجة ، ثم اذن للتجار وغيرهم في ان تضرب لهم الأوراق ، واستغلها من فضول ما كانت يؤخذ من الاجرة للصناع والطبايعين وختم ايدي الطبايعين . وهو أول من أجرى في البحر السفن المقيرة المسعرة غير المخرزة والمدهونة وغير ذوات الجأجي (واحدها 'جؤجؤ' وهو الصدر او عظامه شبهوا به مقدم السفينة) وكانت اول من عمل الحامل ولم يرض عن عمله هذا بعض الرجاز الأكرباء فقال :

أول عبدٍ عمل الحاملا أخزاه ربي عاجلاً وآجلاً

وكان من زياد بن ابي سفيان مثل ما كان من الحجاج : بنى في البصرة دوراً واحياءً ومساجد وحفر ترعاً وانهاراً وكل ما بنى فيها او صنع فانه نسب الى غيره . قال عمر بن عبد العزيز : قال الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة ، واصلاح العراق بأهل العراق ، وترك اهل الشام في شامهم ، وجبي العراق مائة الف الف وثمانية عشر الف الف . وهذا عتبة بن أبي سفيان اخو معاوية واخطب رجل في بني أمية كانت يطفى الفتن يبلاغته اكثر مما يطفئها بجيش دولته . وهذا موسى بن نصير فاتح الاندلس ما التوى له علم منذ خرج من مصر في جيش ضئيل حتى وصل الى الاندلس ففتحها ، واذا قرأت ترجمته بامعان تقولون معي ان الولادة ما ولدت اعظم منه ولا أعقل .

ومن المتعذر في ساعة ضيقة كهذه ان نتناول الكلام على رجال القوم ونذكر بعض ما لهم من المزايا النادرة ، ونحن لذلك نكتفي بالإشارة الى واحد منهم ، وكل واحد من رجالهم يحتاج الى دراسة خاصة مشبعة ، ونعني به مسلمة بن عبد الملك . فقد كان على جانب عظيم من العقل والسياسة والعلم والادب . غزا الروم غير مرة واتخذ فيهم . وفتح الامهات من مدائنهم ، وتولى الاعمال الجليلة ومنها العراقان وارمينية ، فأبان في كل مكان عن كفاءة منقطعة النظير وعن حب للخير غريب في بابه ، واوصى بجزء من ماله عظيم لأهل الأدب قائلاً انهم اهل صناعة مجفوة . ولولا

انه ابن أمة لكاتب من المتحتم ان يجلس على عرش الخلافة الأموية كسائر اخوته الأجلاء الذين ييوضوا وجه التاريخ الأموي والاسلامي باعمالهم الجليلة .

التنظير بين الأمويين والعباسيين

حكم الأمويون في الشرق الف شهر ، وحكموا في الغرب نحو ثلاثة قرون ، وكانوا في الشرق والغرب يتحرون جداً في الأموال لا يأخذ الخليفة مالا يحمل . وكان مما جرت به عادة خلفائهم اذا جاءتهم جبايات الأمصار ان يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال واحياناً اربعون رجلاً قساماً من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل أعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد ان اخذ كل ذي حق حقه ، اي فضل أعطيات الاجناد وفرائض الناس . وكانوا لا ينقلون مالا من بلد الى بلد حتى تسدُّ ثغرُه وخصاصة اهله بما يغنيهم ، فما فضل منه نقلوه الى البلد الآخر الذي يليه .

اما جباية العباسيين فكان فيها الطاهر وغير الطاهر ، وانواع ضرائبهم كثيرة ، لذلك كان ينكسر الخراج ويكثر عيث العمال وعبثهم بها . وما عهد عند الأمويين نزول خليفة عن اقليم او عن قطر لعامل من عماله ، يجيبه على هواه لحسابه الخاص ، ويعهد الى من يريد بتوليته عليه ، ويكتفي الخليفة حفظه الله بالخطبة له والدعاء لدولته . وبوضع اسمه على السكة وكانت هذه الطريقة مبدأ تمزيق دولتهم وفض عرى كلبتهم وفي ايام بني العباس كثرت المصادرات ، وكان يصادر العمال كما تصادر الرعية ، ويصادر كل من عرفت له ثروة بلا رحمة ، ومنهم من كانوا يعذبون انواع التعذيب ليسلبوهم نعمتهم ، ومنهم من هلكوا في العذاب ، ومثل هذا الجور فلما عهد في دولة بني أمية ، ذلك لأن عمالهم طبقة مختارة يكونون من أصحاب الشرف وارباب البيوتات من العرب . وقل أن عهدت السرقة في شريف . وما ذكر التاريخ ان قائداً أموياً او وزيراً أموياً صودر على مال ، كما كنت يصادر قواد العباسيين وولائهم

وزراؤهم ، ولا سيما في الدور العباسي الثاني ، والسبب في ذلك انتظام طرق الجباية وقلة انواعها عند الأمويين . وكان هشام بن عبد الملك ينفذ تنظيم ميزانية الدولة المثل الأعلى وموازنته خير موازنة عرفت . ثم الى هذا كانت الأخلاق على العموم في العصر الأموي أرقى مما آلت اليه في العصر العباسي ، كان في عمال الأمويين الصحابة والتابعون وتابعو التابعين ، وكلهم غاية في فهم روح الدين ، والبعد عن الصغائر والفساسف . ودخل في عمال العباسيين أخلاط الزمر ، ومنهم من لا يعرف أبوه ولا أمه ، ووصلته المصادفات الى المراتب العالية ، ومنهم من أظهر الاسلام واطن خلافة ، كبعض الأتراك والفرس ظلوا في باطنهم على عبادة الكواكب او عبادة النيران .

نسر تفوق الأمويين

الذكاء يورث وينتقل بالدم ، والعلم لا يورث لأنه خاص بدارسه ، وابن الذكي على الأغلب ذكي ، وابن البليد بليد على الأكثر . كذلك كان الناس في كل زمان يعملون للرجل المنسوب الى جد كان له شأن عظيم في الحياة مالا يجعلون مثله لرجل عادي كان لأحد اسلافه شيء من المكانة ، والدم الطاهر ينم عن صاحبه ولا يكذب رائده . وكان البشر منذ القديم يقول بالوراثة عرفها من طريق عملي لا من طريق علمي ، وكان للعرب في باب تحيير البنات الأصولات غرام شديد منذ ابعد ازمنة تاريخهم وما زالوا على ذلك الى اليوم ، حتى كادت الأمة العربية تعد في هذا المعنى ارسنقراطية مع ان اعمالها كلها تدل على تأصل الديمقراطية في دماها . ولذلك رأينا بعض مؤلفي التراجم يحرسون على وضع نسب المترجم له من جهة أهل ابيه وأممه ، وبهذا ساغ لنا ان نستنتج بأن بني أمية لم يظهر ما ظهر منهم من الصفات الغرة في الجاهلية والاسلام إلا بدم نقي انتقل من الأجداد الى الأحفاد ، وتسلسل العقل والذكاء في رجالهم ونسائهم ، وانقلبت الشجاعة والنجدة في بنيتهم وبناتهم . وفي الحديث : الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا

الاسباب الداعية الى التنويه بالأُمويين

لا أريد أن اودعكم الآن قبل ان أفتحكم بأمر طالما لفظ به بعضهم وما اجتمع عليه ، ذلك ان بعض المخرفين عن بني أمية يتهمني بالتشيع لهم ، وأني أنوه في كل فرصة بحسناتهم ، واغض الطرف عما يتخيله المتحيلون سيئات ، وأني أنحي على من ظلمهم وما رحمهم ، وما حيي الأُمويين ، علم الله ، الاحب من انهم النظر فيما قيل فيهم ولهم ، ووازت بين اعمالهم واعمال غيرهم ، وايقن بعد الدرس الطويل والتفكير العميق أنهم مغبونون في الحكم عليهم . سوء خصومهم من العباسيين والعلويين صحيفتهم في الدهر الفاتر لأجل السياسة حتى صار بغضهم الى اليوم مذهباً يدين به من يدين . ويبلغني عن العراق في نهضته الحديثة انهم قلما يقرؤون في المدارس تاريخ بني أمية ابغض بعض الطوائف لهم ، وهذا من اغرب ما يسجل في تجاهل المعروف ، وعدم الاقرار بالأمر الواقع .

ان حكمي على الأُمويين حكم التاريخ فقط ، ارغب في ان أنصف دولة احسنت ولم يبق في الأرض انسان ينسب اليها حتى انقرب من قلبه بما أدون ، ولو كانت المسألة مسألة حظ نفس كان الأولى بي ان أصانع مبغضهم وهم ملايين اليوم . منتشرون في اقطار العالم ولم حول وطول . فالمسألة اذاً ليست مسألة حب وبغض بل مسألة حق وباطل وأقبح . بالتاريخ يكتب بعوامل مذهبية وشهوات نفسية واهواء شخصية .

رثاء شوقي للأُمويين

ورحم الله صديقي شوقي يذكر الأُمويين في قصيدته الخالدة في دمشق بقوله :

بنو أمية للأبناء ما فتحوا	وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً مرير الشرق تحتم	فهل سألت مرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في اطراف دولتها	في كل ناحية ملك وسلطان
يا وحي قلبي معها انتاب ارسمهم	مرى به الهمة او عادته اشتجان
بالأمس قت على (الزهراء) اندبهم	واليوم دمعني على (الفيحاء) هنان

في الأرض منهم سماوات وألوية ونيرات وأنواء وعقبان
 معادن العز قد مال الرغام بهم لوهان في تربه الابريز ما هانوا
 لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت يبني العباس بغداد
 مررت بالمسجد المحزون أسأله هل في المصلى او المحراب مروان
 تغير المسجد المحزون واختلقت على المنابر احرار وعبدان
 فلا الأذان أذان في مناره إذا تعالى ولا الآذان آذان



الجمع بين الآيات التي يقتضي ظاهرها التناقض وتفسير المشكلات

وقفت على مجموع خطي تضم دفتاه كتابين : الكتاب الأول نزهة القلوب لأبي بكر
محمد بن عزيز السجستاني المتوفى سنة ٣٢٠
الكتاب الثاني وهو المسمى بـ

(الجمع بين الآيات التي يقتضي ظاهرها التناقض وتفسير المشكلات)
أما الكتاب الأول فلا أعرض للتعريف به لشهرته ولنشره بالطبع ، وأما الثاني
وهو ما أحسب أنه غير مطبوع وغير متداول ولم أجده ذكرًا في كشف الظنون ولم
يذكر في النسخة التي وقفت عليها اسم مؤلفها ولعل ما أجعل من ذلك مما قد علمه غيري
(وفوق كل ذي علم عليم) وها أنا ذا أعرض على قراء مجلة الجمع المفيدة الأعلام
وصف نسخته المخطوطة والتعريف بالكتاب :

وصف نسخته الخطية

هي ٤٥ صفحة بقطع الربع ورقها عبادي صقيل وخطها من نوع النسخ طول الصفحة
٢٢ س بعرض ١٢ سطور الصفحة ١٩ وكلمات كل سطر من ١١ إلى ١٣ تاريخ كتابتها
ضحى أربعاء اليوم الثالث من ربيع الآخر سنة ٩٨٥ هـ والناسخ هو مقلد بن قسم الله

التعريف بالكتاب

موضوعه — يفهم من اسمه
مفتحه — أما بعد حمد الله كما هو أهله ، والصلاة على رسوله سيدنا محمد وآله
وصحبه فهذا كتاب أودعته عشرة أنواع من تفسير مشكلات القرآن ومقنايهه يضطر
إليها العلماء ، ويحتاج إليها أرباب الكرامى والعظماء ، واختصرته بحسب الطاقة ،

ولخصته وأدجت فيه ما ذكر مقاتل بن سليمان وتكلمت بما دلني عليه البرهان ، وانضح لي بالأدلة العقلية وبأن .

ترتيبه — مرتب على مقدمة وفصول عشرة ، أما المقدمة فهي تلخص بذكر حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة وحديث عن علي رضي الله عنه : لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يعرف للقرآن وجوهاً كثيرة

وأما الفصول فالفصل الأول في تفسير كلمات مشتركة تفسر على معنيين أو أكثر وأورد من ذلك ما استغرق خمس صفحات ، والفصل الثاني في تفسير ما ينفق من القرآن وهذا نموذج منه : اعلم ان كل موضع في القرآن وجلت قلوبهم . أو قلوبهم وجلة فعمناه الخوف . وكل ما فيه مردفين . وتترى . ومداردا . وأبائيل فعمناه التابع وأورد كل مجاء من هذا الباب في سبع صفحات

والفصل الثالث في تفسير اشتباه التقديم في الكلام . ونموذج هذا الفصل : قوله تعالى : خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء . وقال في آية أخرى : في ستة أيام ثم استوى على العرش . هاتان الآيتان توقعات في نفس من لا يفهم — التناقض — وليس كذلك فان تفسيرهما مشتبه في وجوه تقديم الكلام . اما تفسير قوله تعالى : خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش استواء ربانياً لا جسمانياً بل منزهاً عن الاستقرار والجلوس مقدساً عما يخطر بأوهام النفوس استوى على العرش قبل خلق السموات وذلك قوله تعالى : وكان عرشه على الماء يعني قبل خلق الأرض (بيانه) ان يفصل بين قوله (ثم) وبين قوله (استوى) وتقديره استوى على العرش ثم خلق السموات والأرض في ستة أيام بدليل الآية الأخرى وقد استغرق هذا الفصل خمس صفحات

والفصل الرابع في تفسير وجوه اختلاف المكي والمدني وهو في صفحة ونصف صفحة والفصل الخامس في تفسير وجوه اشتباه الحالات قوله تعالى : ربنا أمتنا اثنتين

واحيتنا اثنتين وقال في آية أخرى : لا يدوقون فيها الموت الا الموتة الأولى وهذا يشعر بالتناقض عند من لا يعرف التفسير ولا تناقض فيه من قبل اشتباه تفسيرهما في وجوه الحالات . اما قوله سبحانه : ربنا أمتنا اثنتين الآية معناه كنا نطفاً ميتة لا روح فيها ولا حس لها فخلقنا من تلك النطفة وجعل فيها أرواحاً فمذه موتة وهذه حياة . وشاهد ذلك قوله تعالى للكفار : وكنتم أمواتاً فأحياكم معناه يقول : كيف تكفرون بمن خلقكم وجعل فيكم الأرواح بعد ان كنتم نطفاً ميتة لا حياة فيكم ، ولا ارواح لكم . ثم قال : (ثم يميتكم) يعني عند انتهاء آجالكم في الدنيا ثم يحييكم يوم القيامة للبعث الى الحساب فهاتان موتتان وحياتان . واما قوله سبحانه : لا يدوقون فيها الموت الا الموتة الأولى . يعني الموت الذي أماتهم في الدنيا بعد ما خلقهم من النطف فليس بعد ان خلقهم من النطف موت غير هذه الموتة الواحدة وهذا الفصل يدخل في صفحتين ونصف صفحة

والفصل السادس في تفسير اشتباه صلات الكلام في القرآن وهو في ثلاث صفحات

والفصل السابع في تفسير وجوه خواص المواطن وهو في نحو سبع صفحات

والفصل الثامن في تفسير اختلاف وجوه المواضع وهو في بعض صفحة

والفصل التاسع في تفسير اختلاف وجوه الحروف وهذا نموذج منه . قوله سبحانه وتعالى : ومن يهدي الله فماله من مضل . وقال في آية أخرى : وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى . اما الأولى فيعني من يهدي الله الى الايمان من الضلالة فينور قلبه بالتصديق وشرحه بالمعرفة ، فلا يستطيع أحد ان يضله ويرده الى الكفر كما قال تعالى : فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام فهذا هدى الايمان بالقلب . وأما قوله تعالى : وأما ثمود فهديناهم فهو هدى البيان لا هدى الايمان . يعني أما ثمود فهديناهم ، أي بينا لهم سبيل الكفر والايمان على لسان نبيهم صالح صلى الله عليه فاستحبوا العمى على الهدى . أي آثروا الضلال الذي كانوا عليه على الايمان الذي بينه لهم ودعاهم اليه وتفسيرها بين يتضح بقوله سبحانه : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء . وكذا قوله

سبحانه وتعالى : انا هديناه السبيل اي بينا للانسان سبيل الخير وسبيل الشر . وهذا الفصل يستغرق سبع صفحات ونصف صفحة

وأما الفصل العاشر وبه تمة الكتاب ففي النسخة بياض نحو نصف صفحة وهو يحتوي على ما في القرآن المجيد من لغات القبائل العربية لغة عُثْمَان . ولغة حمير . ولغة طي . ولغة أزد . ولغة نهد . ولغة هذيل . ولغة بني نصر بن معاوية . ولغة قيس . ولغة ثقيف . وما ينفق ولغات الأعاجم لغة النبط . اللغة السريانية . واللغة العبرانية ولغة السوادات ؟ ولغة الزنج . ولغة الروم . وختم هذا الفصل بقوله : وانما أنزل الله كتابه العزيز على نبيه صلى الله عليه وسلم وذكر هذه اللغات ليعلموا ان ذلك ليس من الرسول لأنه صلى الله عليه وسلم لم يسافر الى بلاد أرباب هذه اللغات فتعلمها منهم فلما ذكرها عرف أن الله سبحانه هو الذي عرفه اباها وأنزلها اليه على قلبه كما قال سبحانه : نزل به الروح الأمين على قلبك الآية وقال سبحانه : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك

ومن هذا النموذج الذي استخلصناه نعرف قيمة الكتاب الذي لا أظن انها كتبت عليه آية الحجاب وارجو ان لا يكون ومؤلفه مجهولين عند من يعني بموضوعه القيم من أعلام الأمة

النبطية — جبل عامل :

سليمان ظاهر

أولية تدوين المعاجم

وتاريخ كتاب العين المروي

عن الخليل بن أحمد

- ٢ -

٢ - كيف أسس بناء كتاب العين

إن استقصاء أثر الخليل في الكتاب يدعونا إلى دراسة مراحل تأليفه وكيفية وضعه ، وإذا فعلنا فإننا نرى أول عصر العباسيين حافلاً بتأليف الكتب الجامعة للعلوم : من الحديث يجمعه ابن جريج ، إلى القراءات بدونها أبو عمرو بن العلاء ، إلى الفقه بغيره ، إلى الشعر يجمعه السكري وغيره ، إلى النحو بفصل قواعده الخليل بن أحمد . كل ذلك دون أن نرى لغوياً يحفل بجميع ألفاظ اللغة العربية جمعاً ، وإذا كان اللغويون شرعوا يؤلفون في نواذر اللغة في أبوابها المختلفة وفي معاني اللغة في باب منها خاص^(١) ، وإذا كان أبو عمرو بن العلاء ما زال ينلقت عن الأعراب لغاتهم^(٢) والخليل بن أحمد سماعته عنهم^(٣) في أسفاط عديدة من الصحف ومن الكتب ، فأين كل هذا من حصر ألفاظ اللغة . زد إلى ذلك أن جمع اللغة على هذه الطريقة لا يستفد مادتها أبداً ، فهناك ألفاظ كثيرة لا تخطر ببال ، واللغة واسعة لا مقيد لها في الفكر والذاكرة وشعر الخليل بما حباه الله به من نظر وذكاء ومعرفة بالحاجة إلى تدوين اللغة أولاً وبوجوب البحث عن نهج واف بالحاجة ثانياً ، فأعمل فكره في ذلك وكـ

(١) انظر الفصل المتع الذي كتبه الاستاذ أحمد أمين بك في ضحى الاسلام ٢ : ٢٦٦ - ٢٦٥

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٢٨٦ ، مرآة الجنان للباغسي ، حيدرآباد ١٣٣٧ : ١٤ ، ٣٢٥

(٣) جمع منها عشرين رطلاً كما يقول سيويه في تهذيب التهذيب ٣ : ١٦٦

قريحته وناهيك بقريحته ، فقد كان فريداً في ذلك ، لم يبلغ شأوه أحد فيما روى المؤرخون . وكان أسلوبه في الإبداع أن يرجع إلى أصول الأشياء الأولية وقوانينها العامة يستنتج منها تفصيلها ، وكان يرى أن لكل علم ضابطاً ، إن شئت فقل حسابياً أو لافقلاً أصولياً . وبعد فهل يصعب على من كان هذا شأنه أن يرى أن ضابط اللغة والألفاظ هي الحروف تؤلفها بامتزاجها بعضها مع بعض ، أو هل يعسر على من حصر بحور العرب وعروضها بضروب من المفاعيل عجيبة أن يجد — وهو يضع أبنية الأفعال والأسماء أو مصادرها ويقسمها إلى ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية — أن الألفاظ الثنائية المكونة من حرفين سهلة الحصر ، فما أسهل من أخذ كل حرف من حروف العربية وجمعه مع غيره من الحروف بتقديمه تارة وتأخيره أخرى ، فالباء مثلاً تؤلف مع التاء بت تب ومع الثاء بث و تب ومع غير ذلك من الحروف شبيهاً بهذا البناء ، فحصر تراكيبها سهل إذن ، وقل ذلك عن تراكيب غيرها من الحروف حتى تبلغ ٢٨ حرفاً ، وإذا بالخليل يجد التراكيب الثنائية ثم يرى بنظره الثاقب أن الحصول على تراكيب الثلاثي يكون بأخذ مختلف ضروب تركيب حرف مع حرفين آخرين ثم مع أحدهما وحرف آخر وثالث إلى آخر الحروف مع إعادة ذلك لكل حرف من الحروف دون الالتفات إلى تركيبه مع الحرف ، الذي أخذت تراكيبه آنفاً . وتراكيب الرباعي ثم الخماسي أكثر عدداً ، إلا أن أسلوب الحصر السابق يشملها . يجد الخليل طريقه واضحاً فيسر به إلى تليذه الليث بن المظفر . ويحدثنا بذلك ابن المظفر فيقول : « كنت أسير إلى الخليل بن أحمد ، فقال لي يوماً : لو أن إنساناً قصد وألف ألف وباء وتاء وتاء على ما أمثله لاستوعب في ذلك

(١) وقال الخليل بن أحمد : كلام العرب مبني على أربعة أصناف : على الثلاثي والثلاثي والرباعي والخماسي ، فأما الثلاثي فما كان على حرفين نحو : قد ، بل ، هل ، ومثلاً من الأدوات ، قال والثلاثي نحو قولك : ضرب ، خرج ، مبني على ثلاثة أخرى والرباعي نحو قولك : دحرج ، هملج ، قرطس ، مبني على أربعة أحرف . . . قال والخماسي نحو : سفرجل ، وشمرول وكنهيل وقبتر وما أشبهها قال الليث قال الخليل : ليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف فيها وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم فاعلم أنها رائدة على البناء نحو : قرحلانه إنا هو قرحل . . . »

التهديب للأزهري ٣٩

جميع كلام العرب ، وتبياً له اصل لا يخرج عنه شيء منه بته . قال فقلت له وكيف يكون ذلك ؟ قال : يؤلفه على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، وأنه ليس يعرف للعرب كلام أكثر منه . قال الليث فجعلت أستفهمه ويصف لي ، ولا أقف على ما يصف ، فاختلفت إليه في هذا المعنى أياماً ، ثم اعتل وحجبت ، فما زلت مشفقاً عليه ، وخشيت أن يموت في علة فيبطل ما كان يشرحه لي «^(١) ولكن الخليل استمر بالتفكير باختراعه العظيم^(٢) ، وأعمل فكره فيه ، فلم يمكنه أن يتبدى من أول ابته لأن الألف حرف معتل لا يبقى في الكلمة على شكله بل يتغير ويغيرها ، وما أفسد الابتداء بما يصعب ضبطه ولا تستوي طريقه » فلما فاتته أول الحروف كره أن يجعل الثاني أولاً — وهو الباء — إلا بحجة^(٣) : « لأن رفع الألف أخل بترتيب الألفباء ، فلم يعد من حاجة لأخذ الباء . ثم لما اغفل ترتيب الألفباء جعل يتدبر اسلوباً لترتيب الحروف تتم منه الفائدة في العمل الذي أنشأه ، فانتقل به الفكر إلى مخارج الحروف مما كان أوعاه في دروسه في النحو ، فوجد أنه إن رتب الحروف حسب مخارجها في الفم قربت الحروف المتشابهة من حيث طريقة نطقها بعضها من بعض ، فأصبحت الحاء قرب الهاء قرب الخاء قرب الغين .

ولا بد أنه وجد لذلك فوائد جليلة ، تخيل منها — مستأنسين بنصوص وردت عفواً في كتاب العين — أن الحروف المتشابهة بالمخارج لا يمتزج بعضها مع بعض في تكوين الألفاظ إلا نادراً^(٤) ، وهي إن ضرب بعضها ببعض أخرجت تراكيب مهمة لم يستعملها العرب ، وما أحسن أن يجتمع المهمل بعضه قرب بعض في الكتاب فلا يتفرق ، وما أحسن أن يقال في كتاب العين : « العين والحاء لا يأتلفان في كلمة واحدة أصلية الحروف لقرب مخارجهما^(٥) » ثم مهمل

(١) القهرست ٢٣ وارشاد الأديب ٦ : ٢٢٧ (٢) التهذيب للأزهري ٣٩ ، لسان العرب ٩ : ٣٩٩ ، تاج الروس ٥ : ٢٩٨ (٣) المصادر السابقة (٤) ذكر ابن منظور في لسان العرب ١ : ٨ سر تقارب الحروف وما يكثر استعماله من الحروف وما يقل وهو بحث استقصاء واحسن فيه ناظره وفي سر صناعته الاعراب لابن حني نسخة الظاهرية عام ١٥٠٠ آخر الكتاب « فصل في مذاهب العرب من مزج الحروف بعضها ببعض وما يجوز من ذلك وما يمتنع وما يحسن منه وما يقبح » (٥) في التهذيب للأزهري ص ٥٠

بعدهما مباشرة العين مع الهاء ثم العين مع الفاء^(١) . وليس ذلك فحسب بل ان الراء واللام والنون والفاء والباء والميم وهي التي سميت ذُلُقًا وشفوية « لما ذلقت وبذل بين اللسان وسهلت في النطق كثرت في أبنية الكلام ، فليس شيء من بناء الخماسي التام يعرى منها او من بعضها ، فإن ورد عليك خماسي معرى من الحروف الذلق او الشفوية فاعلم انه مولد وليس من صحيح كلام العرب^(٢) » « أما الرباعي المنبسط فان الجمهور الأكثر منه لا يعرى من بعض الحروف الذلق » « ومهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من حروف الذلق والشفوية فإنه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة او كليهما ومن السين وال dal او احدهما^(٣) » ويبدو من ذلك واضحاً ان ضروب الحروف بعضها ببعض في الرباعي والخماسي مهمل إلا ما دخل فيه الحروف الذلق والشفوية وبذلك فحمل الرباعي والخماسي يأتي متقارباً في الكتاب بعد ترتيب الحروف على محارجها . ولهذا الترتيب فائدة أخرى جليمة ، وهي أن الحروف المتشابهة قد تحمل الواحدة منها مكان الأخرى في كلمة واحدة دون ان يتغير معناها ، وذلك ما يسمى بالابدال . وهكذا يفهمنا الخليل أن كل صاد تسبق القاف إن شئت جعلتها ميماً لا تبالي متصلة كانت بالقاف او منفصلة بعد ان تكون كلمة واحدة^(٤) .

وجد الخليل هذه الفوائد التي تجعل ترتيب الكتاب علمياً منطقياً سهلاً قريباً من الحفظ لا تتداخل فيه الأشياء وتمتزج دون صلة أو تشابه ، فرغب في ترتيب الحروف على المحارج ، فأقبل على الحروف ، ووضع محارجها ، وألفها تأليفاً يتفق مع غاية الكتاب ونهجه وما يتوخاه منه « فنظر إلى الحروف كلها ، فوجد مخرج الكلام كله من الخلق ، فصور اولاهها بالابتداء به ادخلها في الخلق . وكان ذوقه ايها أنه كان إذا أراد أن يذوق الحرف فتح فاه بالألف ثم أظهر الحرف اب ات اج الخ ٠٠ فوجد العين أقصاها في الخلق

(١) في التهذيب للازمعي ص ٥٠ (٢) عن الخليل في التهذيب ص ٢١

(٣) التهذيب ص ٢٢ وعن غير ابن المظفر قال الخليل : « وأما المصمتة فإنها تسعة عشر حرفاً صحيحاً ٠٠٠ وإداعريت من حروف الذلاقة قلت في البناء فليست وأجداً في جميع كلام العرب خماسياً بناؤه بالحروف المصمتة خاصة ولا كلاماً رباعياً كذلك غير المصمتة » التهذيب ص ٢٧

(٤) من كتاب الدين ص ١٠٥ عن دروس الاسناد مارسية ٢٢ كانون الثاني ١٩٣٦

وأدخلها فجعل أول الكتاب العين ، ثم ما قرب مخرجه منها بعد العين الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخر الحروف^(١) . . . وهذا تأليفه : ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ي^(٢) »

ويجعل بعض اللغويين من هذا الترتيب المخالف لترتيب البصريين سبيلاً للطعن في الكتاب وفي نسبته إلى الخليل شيخ البصريين : فيقول المفضل بن سلمة الكوفي (توفي نحو ٢٥٠) : « ذكر صاحب العين أنه بدأ كتابه بحرف العين لأنها أقصى الحروف مخرجاً ، والذي ذكره سيبويه أن الهزمة أقصى الحروف مخرجاً^(٣) » ؛ ونسي أبو طالب المفضل أن الخليل اسقط الهزمة لأنها حرف يعتبر به التغير . ثم يعترض الزبيدي على تقديم العين على الهاء ويرى أن ذلك ينقض نسبة الكتاب إلى الخليل ، ولكن الليث ليس الوحيد الذي نقل هذا الترتيب عن الخليل لنشك في نسبته إياه لل خليل بل نقله غيره عنه بخلافه^(٤) زد إلى ذلك أن محمد بن أحمد بن إبراهيم النحوي البصري (٢٩٩ -) يروي عن الخليل نصاً يعتذر فيه عن عدم الاجتهاد بالهاء حيث يقول : « انه لم يبدأ بالهاء لأنها مهموسة خفيفة لا صوت لها . . . وليس العلم بتقديم شيء على شيء لأنه كله مما يحتاج إلى معرفته . . . وأولاهها

(١) في التهذيب ٣٩ - ٤٠ ولسان العرب ٩ : ٣٤٩ تاج الروس ٥ : ٢٦٨

(٢) تهذيب ٤٠ وذكر الأزهري في محل آخر ص ٤٤ - ٤٥ ولسان العرب ١ : ٧ احياز ومدارج الحروف قال الخليل بن أحمد « أقصى الحروف كلها العين وأرفع منها الهاء ولولا بحة في الهاء لأشبهت العين لقرب مخرج الهاء من مخرج العين ثم الهاء ولولا هنة في الهاء وقال همة في الهاء لأشبهت الهاء لقرب مخرج الهاء من الهاء فهذه الثلاثة في حيز واحد ، ثم الهاء والتين في حيز واحد ثم القاف والكاف في حيز واحد ثم الجيم والشين والضاد الثلاثة في حيز واحد ثم الصاد والسين والزاي ثلاثة في حيز واحد ثم الفاء والباء والميم ثلاثة في حيز واحد ثم الواو والياء والألف ثلاثة في الهاء ولم يكن لها حيز تنسب إلى غيره » وقد وضع أبو الفرج بن عبد الله بن دلائل المعافري الجزيري ترتيب حروف الخليل في أبيات منظومة فانظرها في المزهري ١ : ٤٥ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ والبلغة ١٦٠ وانظر عن ترتيب الحروف واحيازها بالتفصيل في التهذيب ٤١ و ٤٥ و ٤٧

(٣) في المزهري ١ : ٤٥ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ ويستطرد المفضل قائلاً « ولو قال بدأت بالعين لأنها أكثر الكلام واشتد اختلاطاً بالحروف لكان أولى » . وكلامه هذا صحيح إلا أنه ورد عن الخليل ما يشابهه برواية ابن كيسان في المزهري ١ : ٤٦ (٤) كما ذكر ذلك الأزهري في التهذيب ص ٤٧

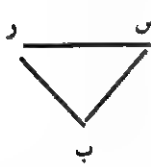
بالتقديم أكثرها نصراً^(١)» . ويرى الزبيدي أن ترتيب الخليل يختلف عن مذهب البصريين حتى « بتقديم غير ذلك من الحروف وتأخيرها^(٢) » . والحق أن هنالك اختلافاً ما في التقديم والتأخير بين ترتيب الخليل وترتيب سيبويه في كتابه الذي أخذ معظمه عن الخليل^(٣) ولكنني أرى لهذا الاختلاف دواعي عملية اقتضاها تأليف الكتاب والسهولة المتوخاة منه ، فقد وردت الضاد في ترتيب سيبويه مع الحروف الذوقية ، ولم يدخلها الخليل فيها لأنها قليلة الاستعمال ، وقد قلنا إن الخليل قصد بالذوقية ما يدخل من الحروف المستعملة في الكلمة ليحسنها . وهكذا جعل الضاد مع الصاد ، وفي نطق الحرفين تقارب ، وقد وافقه على ذلك الفيلسوف ابن سينا في كتابه « أسباب حدوث الحروف » فجعل الضاد قبل الصاد^(٤) واختلاف آخر بين سيبويه والخليل في الياء ، فقد أوردها سيبويه مع الجيم والشين ، وعدها الخليل في آخر الحروف مع المعتلات لغاية عملية خالصة وهي إفراغ المعتلات . وهذا هو كل الاختلاف الذي يجدر الانتباه إليه خاصة وتعليله ، أما أن يذكر سيبويه الزاي قبل السين ثم الصاد ، ويذكر الخليل الصاد قبل السين قبل الزاي فليس بالاختلاف الكبير ، فهي أحرف متقاربة متشابهة ، لا فارق كبير يميزها ، على أن ابن سينا وافق الخليل وخالف سيبويه في ذلك . وقل مثل ذلك في عد سيبويه (ل ن ر) والخليل (ر ن ل) ، ويظهر لي أن هذين الاختلافين الذين لا كبير شأن لهما^(٥) حدثا بعد أن تغير مكان الضاد في ترتيب الخليل . وكذلك فإن كان اختلاف بين سيبويه والخليل فليس ذلك « خطأ واضطراباً » في كتاب العين كما يقول ابن جنى^(٦) ، وإنما هو نتيجة عملية من توخي السهولة والاحكام في التأليف .

(١) في المزهر ١ : ٢٦ (٢) المزهر ١ : ٢٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠

(٣) الكتاب ٢ : ٢٠٥ ويقول الأستاذ مارسيه إن ترتيب سيبويه في كتابه لم يأخذه عن الخليل ولم يذكر أنه رواه عن الخليل وإن ترتيب كتاب العين هو عمل الخليل (٤) طبعة القاهرة ، سنة ١٣٣٢ م ٩ (٥) فان ابن جنى الذي يأخذ على كتاب الدين ترتيبه وقر ترتيب سيبويه لم ينبج من مخالفته بتقديم أو تأخير كهذا (س صناعة الاعراب نسخة الظاهرية عام ١٥٠٠ ، و ٢١٩ : ٢١٩)

(٦) النص السابق .

بعد أن وضع الخليل ترتيب الحروف على مخرجها بأسلوبه الذي ذكرناه انتقل منه إلى غايته الأصلية من كتابه ألا وهي حصر أبنية اللغة العربية وتمييز المستعمل من المهمل مما يتركب من ضرب الحروف بعضها ببعض^(١)، ولنتخيل كيف فعل مستأنسين بنص من مقدمة كتاب العين^(٢) : عمد إلى حصر أبنية الثاني أولاً مبتدئاً بالعين يؤلفه مع الحرف الذي يتبعه وهو الحاء قائلاً : ان الحرفين لا يأتلان فتر كيبيهما مهمل ؛ وكذلك العين مع الهاء والعين مع الخاء ثم مع الفاء^(٣) . ثم يأخذ العين مع القاف ، فيستخرج من ذلك (ع ق ، ق ع) بتقديم العين تارة وتأخيرها أخرى . ثم يأخذ العين مع الكاف بتقديما أولاً ثم بتأخيرها ثانياً ، وهكذا حتى ينتهي إلى آخر الحروف ويعود إلى الحرف التالي وهو الحاء فيركبها مع ما يليها ويفعل ما يسبقها لأنه فعل ذلك آنفاً . ويفعل ذلك بكل حرف حتى ينتهي إلى الألف — وهو الحرف الذي يسبق آخر حرف — فيضربه بآخر حرف فقط ضربين ، ومن ثم ينتقل إلى الأبنية الثلاثية فيضرب الحرفين الأولين (ع ، ح) بالحرف الثالث ثم بالرابع والخامس إلى آخر الحروف ، ثم يعمد إلى العين مع الخاء ويضربها بما يلي الخاء وهمجراً . ولفهم طريقه إلى تأليف حرف مع حرفين^(٤) خذ مثلاً ، ووقع على كل رأس من رؤوسه حرفاً ، ولنفرض أن الحروف الثلاثة هي : (ض ، ر ، ب) اجمع الحرف الأول مع الثاني مع الثالث تحصل على (ضرب) ، ثم اجمعه مع الثالث والثاني تحصل على (ضرب) ، ثم اجمع الثاني مع الأول والثالث تحصل على (ر ب ض) ، ثم خذ الثالث واضربه بالثاني والأول تحصل على (بر ض) ثم بالأول فالثاني تحصل على (بضر) : فتلك ستة أوجه . ولا شك أن هذه الطريقة



(١) ذكر احمد امين طريقة ذلك في ضحى الاسلام ٢ : ٢٦٨ - ٢٦٩ ولخص تلك الطريقة ابن خلدون في المقدمة في باب اللغة وتتل عنه محمد حسن صديق خان في ايجد العلوم ٦١٢ - ٦١٥
 (٢) في التهذيب ص ٢٥ (٣) في التهذيب للازهري ص ٥٠ وما يقيمه
 (٤) تجد طريقة الشرح هذه في الجهرة لابن دريد ٣ : ٥١٢ وقها عنه الزهر ١ : ٣٦ اما الحروف التي فرضناها فهي نفسها التي اخذها الخليل مثالا (تهذيب ٢٥)

تقتضي كما في الثاني ان لا يضرب حرف من الحروف حين الوصول إليه بما يسبقه من الحروف . حتى إذا انتهى من الثلاثي أخذ الرباعي وابتدأ بالحروف الثلاثة الأول ، يضربها بالتتابع مع كل حرف من الحروف التي تليها . ولفهم طريقة تأليف ضروب الحروف الأربعة ارمم مربعاً ، ووقع على كل رأس من رؤوسه حرفاً فإذا ع ب كانت الحروف الأربعة (ع ب ق ر) اضرب العين بالأوجه الستة  التي تتكون من (ب ق ر) تحصل على عبقر ، عبرق ، عقرب ، عقر ، ع ب ق عريق ، عرق ، ثم اضرب الباء بالأوجه الستة التي تتكون من (ع ر ق) تحصل على بعقر ، بعرق ، بقرع ، بقعر ، برعق ، برقع . وافعل كذلك بالقاف ثم بالراء . يكون مجموع ما تحصل عليه أربعة وعشرين وجهاً ، أكثرها مهمل . قال الخليل^(١) « والكلمة الخماسية تنصرف على مائة وعشرين وجهاً : وذلك أن حروفها ضربت وهي خمسة احرف في وجوه الرباعي وهي أربعة وعشرون وجهاً » وحصر الخليل كالثلاثي والرباعي ، الا انه يؤخذ فيه أربعة احرف تضرب بما يتبعها من حروف العربية . ولما انتهى الخليل من هذا الحساب والضرب كتب عنه الليث في أول كتابه :

« هذا ما ألفه الخليل بن أحمد من حروف ا ب ت ث التي عليها مدار كلام العرب وألفاظها ، ولا يخرج شيء منها عنه أراد أن يعرف بذلك جميع ما تكلمت به العرب في أشعارها وأمثالها ، ولا يشذ عنه منها شيء^(٢) » فغاية الكتاب الأولى حصر الأبنية المستعملة والمهملة بطريقة حساية لا تخطئ كما مر معنا .

ولم يفهم تلك الغاية كثيرون ممن رجعوا إلى كتابه فظنوا انه أراد أن يذكر في كتابه كل الألفاظ التي استعملها العرب لا الأبنية ، فأخذ عليه أحمد البشتي ان كتابه اشتمل على ضعفي كتاب الخليل ، وهرأ الأزهري فيقول : « ولما قرأت هذا النص من كتاب البشتي استدلت به على عقله وقلة فطنته وضعف فهمه ، واستيقنت أنه لم يفهم من الخليل ما أراده ولم يظن للذي قصده^(٣) » واتخذ ابن فارس من معنى ما ذكر الخليل طريقة لنفي الكلام عنه فقال : « فأما الكتاب

(١) في الهذنب ٢٥ (٢) في تهذيب اللاهري ص ٢٩ (٣) في المصدر السابق .

المنسوب إلى الخليل وما في خاتمه من قوله : هذا آخر كلام العرب ، فقد كان الخليل أودع وأنتى لله جل ثناؤه من أن يقول ذلك ^(١) » وإذ قد فهمت ما أراد الخليل فليس ما يمس ثقاه وورعه من هذا الكلام . بل إنك تفهم انه يستطيع ان يحسب عدد الأبنية التي أخذ العرب منها ألفاظهم ، وذلك ما فعل بطريقة رياضية لا تخطئ . فقد عرف أن للثنائي وجهين ، وللثلاثي ستة أوجه ، وللرباعي أربعة وعشرين وجهاً ، وللخامسي مائة وعشرين وجهاً ، وعرف عدد حروف العربية فكان حساب عدد الأبنية التي تخرج من كل منها ممكناً ، وجمع الحاصل أسهل ^(٢) . وهاك عدد أبنية العرب المستعملة والمهملة بعد الحساب وإسقاط المكرر :

الثنائي	٧٥٦
الثلاثي	١٩٦٥٦
الرباعي	٤٩١٤٠٠
الخامسي	١١٧٩٣٦٠٠
المجموع	١٢٣٠٥٤١٣

ويتفق حسابنا هذا في جميع تفاصيله مع ما ذكره حمزة الأصفهاني ^(٣) عن الخليل ، اللهم الا في الثلاثي ، فقد ذكر أن عدد ابنيته (١٩٦٥٠) . ولا شك ان هذا خطأ من الناسخين .

(ينبع)

يوسف العيسى

(١) الصاحبي ١٨ (٢) ورد هذا الحساب والتمداد مروياً عن حمزة الأصفهاني عن الخليل في الزهر ١ : ٣٧ وبنية الوعاة ٢٢٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ وحسب هذا الحساب ابو بكر محمد بن حسن الزبيدي في مختصر كتاب العين فيما نقله عنه الزهر ١ : ٣٧ . وورد الحساب أيضاً في الجهره لابن دريد ٣ : ٥١٢ . ونقل ذلك الزهر ١ : ٣٦ - ٣٧ وروى جرجي زيدان ذلك في تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٢٢ ولكن هذه الحسابات تختلف الواحدة عن الاخرى اختلافاً يائياً : فإذا ذكر الزبيدي ان مجموع المهمل والمستعمل من الأبنية (٦٦٩٩٢٠٠) (وفي الأصل ٦٦٥٩٢٠٠ وهو غلط إن شئت فسمه مطبوعاً) فان حمزة يذكر (١٢٣١٥٢١٢) كما في السبعة المطبوعة من البنية أو (١٢٣٠٥٢٠٦) كما يظهره حاصل جمع التفاصيل وما في الزهر وإذا ذكر هذان المؤلفان ان ضروب الثلاثي (١٩٦٥٠) ذكر ابن دريد أن ضروبه (١٥٦٢٠) ولا شك في أن كلامهم أغفل من الحروف ما لم ينقله الآخر ومن المعتل او المكرر ماعده الآخر ، وبذلك ظهر الاختلاف فيما بينهم . ويجدر الاشارة أيضاً إلى ان خطأ الطائفتين او النسخ يزيد الاختلاف بينهم إلى هذا الحد .

(٥) في الزهر ١ : ٣٧ وتعدد اقرب المصادر الى الصحة وفي بنية الوعاة ٢٢٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١

عشائر الشام

- ١ -

من الموضوعات التي أولع بها أدباء العربية قديماً وأطالوا البحث عنها والكتابة وقصر
اختلفهم الحاضرون في ذلك موضوع عشائر الأعراب أو البدو^(١) وإذا كان بعض الفضلاء
في العراق وفي مصر وفي جنوبي الشام « فلسطين وشرقي الأردن » ممن سذكراً أسماءهم
قاموا أخيراً بقسط محمود من ذلك فإن أمثالهم في شمالي الشام لم يحفلوا به حتى الآن .

على حين أن هؤلاء البدو هم ما بين ظهرائنا أو على مقربة منا ، ولهم فوق صلات الجنس
واللغة والدين والتاريخ التي تربطنا وإياهم مكانة في أمورنا الاقتصادية والقومية . فكل سموننا
وأكثر لحومنا التي نأكلها والأصواف التي نلصقها والمطاييا التي نركبها منهم . وقسم
كبير من سكان الحواضر عندنا كدمشق وحمص وحماة وحلب ودير الزور يعتمد في
تجارته ومرتزقه من الماشية ومنتوجها على شركائه وعشرائه من هؤلاء البدو .

وقد كذب لي أن اتجول في أملاك دولة الشام ، وهي على سيف البادية وجل
فلاحها وكل الضاربين في براريها من البدو ، وأن اغشى منازل هؤلاء فانظر واسأل
وادون واقارن ذلك بما أجده في الكتب العربية والافرنجية الباحثة عنهم حتى اجتمع لي
طائفة من أخبارهم . على أنني اعترف بقلّة مانهلت من هذا البحر ومادونت لصعوبة الاتصال بالبدو
وعسرة استقراء الحقائق منهم مما ييسر لرواد الافرنج ومستشرقهم ولا سيما لعمال دوائر
الانتداب منهم أكثر منا . لأجل هذا فقد قصرت هذه العجالة على ذكر مقدمات وجيزة
عن تقسيم عشائر البدو في عهدنا الى طبقات وعن تاريخهم القديم والحديث ثم وصفت البادية

(١) الأعراب بالفتح أهل البادية من العرب والواحد أعرابي بالفتح ايضاً وهو الذي يكون صاحب
نخلة وارتباد للكلاً ، وقيل من تزل البادية وجاور البادين وظن بظنهم فهم أعراب ومن تزل بلاد
الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي الى العرب فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء .
(عن المصباح المنير للمعري القيوي) ، وقد اصطلاح الشاميون على تسمية الاعراي بالبدوي وعلى
تسمية الريفي بالفلاح ويجمعونه على فلاحين وفلاحين كما يجمعون العربي على عربان .

وخصائصها ، ثم انتقلت الى البحث الأصلي وهو : تعداد العشائر وتعريف منابهم ومنازلهم وفرقهم ومبلغهم من العدد والقوة ، وتركت البحث عن عاداتهم وتقاليدهم واخبارهم الماضية والحاضرة الى فرصة اخرى .

ما ألف عن البدو

من الباحثين عن أنساب البدو واحوالهم بين أدباء العرب القدماء وجدت ابن عبدربه الاندلسي المتوفى في سنة ٣٢٨ في كتابه العقد الفريد ، وابي الفرج الاصفهاني المتوفى في سنة ٣٥٦ في كتابه الأغاني ، وابي عبيد البكري المتوفى في سنة ٤٨٧ في مقدمة كتابه «مجم ما استعجم» ، وابن خلدون المتوفى في سنة ٨٠٨ في الجلد السادس من تاريخه الكبير المسمى «العبر» ، والقلقشندي المتوفى في سنة ٨٢١ في الجلد الرابع من صبح الأعشى . في كتابه الثاني المسمى «نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب المطبوع في بغداد وفي كتابه الثالث المسمى «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية يبحث في قبائل مصر في زمنه . وقيل ان في احد الأجزاء التي لم تطبع بعد من مسالك الأربار لابن فضل الله العمري المتوفى في سنة ٧٤٨ ذكراً لمنازل العرب كما كانت في مصر على عهده ، وقيل أيضاً ان لابن حزم الظاهري المتوفى في سنة ٤٥٦ كتاباً اسمه «جمهرة النساب في معرفة قبائل العرب» وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية ولم يتسن لي بعد الاطلاع على المخطوطات المذكورة ، وإن كانت تشمل العصور والأماكن البعيدة عن موضوعي وبحوثي .

ومن الباحثين المتأخرين ابو الفوز السويدي البغدادي في رسالته «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» المطبوعة على الحجر في الهند سنة ١٢٩٦ لكن ابحاثها قديمة ومقتبسة عن نهاية الأرب للقلقشندي وترتيبها غير موف بالغرض ، والسيد شكري الالومي في كتابه «بلوغ الأرب في احوال العرب» المطبوع في بغداد سنة ١٣١٤ في ثلاث مجلدات خصها بشرح اخبار عرب الجاهلية وعاداتهم وآدابهم مما هو بعيد عن مطلوبنا واحسن الكتب العربية الحديثة كتاب «خمس أعوام في شرقي الاردن» المطبوع في حريصا

(لبنان) سنة ١٣٤٥ للارشمندريت يولس سليمان بسط فيه آداب بدو شرقي الاردن في عهدنا وقضائهم ودياناتهم وعشائرهم ، وكتاب « القضاء بين البدو » المطبوع في القدس سنة ١٣٥٢ للسيد عارف العارف قائم مقام بئر السبع بسط فيه اخبار بدو بئر السبع في عهدنا ايضا وطبائعهم وعاداتهم في القضاء والقتل والسرقة والمرأة والحيوان والرحيل والتجارة والطب والعقيدة ، وكتاب « تاريخ شرقي الأردن وقبائلها » للفتن كولونل ج. بيك الانكليزي وقد عربه السيد بهاء الدين طوقان وطبعه في القدس سنة ١٣٥٤ ، وكتاب « قلب جزيرة العرب » لفؤاد حمزة طبع في مصر سنة ١٣٥٢ ، وكتاب « قبائل العرب في مصر » لأحمد لطفي السيد طبع في مصر سنة ١٣٥٤ ، وكتاب « عشائر العراق » للسيد عباس الزاوي المطبوع في بغداد سنة ١٣٥٦

ووجدت من الافرنج الباحثين عن البدو الرحالة بر كمهارت السويسري^(١) صاحب كتاب « رحلة في بلاد العرب » وقد وافى هذه البلاد في سنة ١٢٢٤ هـ وعدي في كتابه ما صادفه في تلك الحقبة من عشائر البدو في الشام والحجاز وأحصى نفوسها وذكر أطوارها وأساليب معيشتها ومناطق رعيها وكل ما يتعلق بها بتدقيق واف . وللمستشرق موزيل التشيكوسلوفاكي^(٢) كتب بالألمانية عن بادية العرب بحث فيها عن عشائر عنزة ولاسيما عن الرولة وتقاليدهم ، وكان أقام بينهم سفينة عديدة وكانوا يدعونه الشيخ مومى الرويلي وللأساطحة الانكليزية اللادي آن . بلونت^(٣) كتاب في مجلدين عن « عشائر البادية الفراتية » طبع في لندن سنة ١٨٧٩ كما أن لها كتاباً آخر اسمه « رحلة إلى نجد » ترجم الى الفرنسية ، وللكابتن رينو^(٤) الافرنسي رسالة صغيرة عن « بدو البلاد التابعة لحكومة دمشق » طبعت في سنة ١٩٢١ ولكومندان مولر^(٥) كتاب اسمه « في بلاد الشام مع البدو » طبع في سنة ١٩٣١ ، وهذان الضابطان كانا من مدراء الإدارة الفرنسية الخاصة

(1) Jean - Louis Burkhart, Voyages en Arabie. (2) Aloes Musil, Arabia deserta, 1927. (3) Lady Anne Blunt, Bédouin tribes of the Euphrates, Murray, 1879. (4) Capitain Renaud, Les Bédouins de mouvence du gouvernement de Damas, 1921 (5) Victor Muller, En Syrie avec les Bédouins, 1931

بمراقبة العشائر . وثمة كتابان فرنسيان للأب جوسن الدومينيكي^(١) أحدهما عن عادات البدو في بلاد موآب وثانيهما عن عشيرة الفقرا إحدى العشائر الكبيرة في تلك الأنحاء ، والمسيو آلبر بوشمان^(٢) كتاب اسمه « امنعة المعيشة البدوية » فيه وصف ألبسة البدو وفرشهم وأوانيهم ومضاربهم . واحديث الكتب الاوربية وأكملها عن عشائر الشام هو ما نشره أخيراً المستشرق البارون فون اوبنهايم^(٣) المطبوع في ليوبزغ سنة ١٩٣٩ ، ولعل هنالك كتباً أخرى لم أطلع عليها فاكتفيت بذكر ما علمت .

طبقات البدو

لنا أن نقسم بدو زماننا في شمالي الشام حسب عراقتهم بالبداوة واطوارها وبعدهم عن الحضارة ومنازلها الى ثلاث طبقات :

الطبقة الاولى : أعراب البادية او البدو الأفحاح ويوصفون في اصطلاح الافرنج بالبدو الاصليين او بالبدو الرحل ، وهم اهل الوبر ، أصحاب المضارب او الخيام او بيوت الشعر لسكنائهم والخيول لركوبهم والابل لمعاشهم . فالابل مراكبهم التي يحملون عليها احمالهم وينقلون اثقالهم وبأكلون لحومها ويقتاتون بألبانها ويكتسبون وينسجون بيوتهم من أوبارها ويقايضون عليها في المبيعات ويعطون منها في سائر الغرامات والديات والمراهنات ومهر الزوجات ، فهي سيف الجملّة مصدر غنائمهم ومبعث غنائمهم ، كما انهم سبب معاشها ووجودها ، لا يدرون أي خلقت لم وقبلهم ام هم خلقوا لها وقبلها ، ولا يدفعون للدولة عنها سوى ضريبة تدعى « الودي » ، دأبهم الظعن بين قفار البادية وارياف الحضارة فراراً من حمارة القيظ تارةً وصبارة البرد أخرى وارتداداً لمواقع القطر وانجاءاً لمنابت الكلأ والمراعي الصالحة للابل فينجمون هنالك ما ساعدهم الحصب وامسكنهم الرعي ثم يتوجهون لطلب الكلأ وابتغاء المياه والدفع في اماكن أخرى فلا يزالون في حل وترحال يقطعون

(1) P. Jaussen, Coutumes des Arabes en pays de Moab. Coutumes des Fuquaras, 1920. (2) Alber Bouchman, Les meubles de la vie Bedouine. (3) Die Beduinen, Max Vonoppenheim . Leipzig. 1933

٥٠٠ و ٦٠٠ واحياناً ٧٠٠ — ٨٠٠ كيلومتر فيصلون في الشرق الى بوادي العراق
او في الجنوب الى فيافي نجد ثم يعودون الى مشارف الشام او الى ما يقاربها .
وهوام في البادية وفيافيها التاسعة وآفاقها الواسعة وحريتها المطلقة ووحشتها الرهيبة
ونباتاتها وحيواناتها الغربية ولا يزالون يمدحون البوادي وشطف عيشها في منظوم كلامهم
ومنشوره . وهم يحقرون اهل الطبقة الثانية ويدعونهم « رعية » و « شاوية » او « شوايا »
لاقننائهم — الشياه والمعز ، يعدّون ذلك من اكبر العار اذ تمنعهم عن الابدال في البيداء
ومدافعة الاعداء — ويمتهنون اهل الحضرة والقرى ويدعونهم « الفلاليج » لانهم
سأكنون بيوت الحجر ومعتادون على الرفق وحماية الدولة ، ومتكلمون على الحرث والكرث
وهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون في الطرق ويتجافون عن المروج الاغصان في
المجالس وعلى الرجال وفوق الاقتاب ، ويتفردون في الصحراء وثقتهم بأنفسهم كثيرة حتى
صار البأس لهم خلقاً . ولذلك كان أكثر البدو توغلاً في القفر اشدّهم بأساً واجراًم على
تحمل المشاق . وهؤلاء البدو الشعب الغير الخفاة لا يقشون القرى والمدن الا للضرورة في
سني المحل والظما او لابتياح حاجاتهم ويبيع الذكور من إبلهم ، ويبيع اصوافهم ، وهم
لجفوتهم وقسوتهم وجهلهم حق الغير في تعبهم ونسبهم كثيراً ما يلحق اهل الضياع
والمزارع حين مرورهم بها . مضرات من افسادهم السابلة ورعيهم الزرع مخضراً او انتهابه
قائماً وحصيداً ، ويتفاقم ضررهم حينما يرون من فوضى الأحكام ومساعدة ذوي السلطان
فرصة . وهؤلاء في بلادنا عشائر شمر في بوادي الجزيرة الفراتية ، وعشائر عنزة في بوادي
الشامية . وسياقي ذكر فروع كل منها .

الطبقة الثانية : اعراب الحاضرة الذين يسعون في انحاء حلب وحماة وحمص ودمشق
« عربان الديرة » او « الرعية » وفي انحاء دير الزور والجزيرة « شوايا » . وهؤلاء ايضاً
اهل وبر وخيل ، لكنهم قسمان : قسم لا يرتزق الا بالضرع اي بارعاء الماشية من الغنم
والمعز فقط . وهذه الماشية اما ان تكون لهم وحدهم ، واما ان تكون لأهل مدن
حلب وحماة وحمص ودمشق ودير الزور وغيرها يشاركونهم في تربيتها والتجارة بصوفها
وسمنها التي ندر عليهم وعلى شركائهم في سني الخصب ثروة غير يسيرة . ويسمى الافرنج

هذا القسم من الأعراب بالغنامة او النصف رحل او النصف حضر . وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر دون غيرها ليمكنوا من الظعن وراء الماشية . والقسم الثاني يضم الى الضرع امتلاك الضياع والارضين واستثمارها بالحرث والزرع ، فهم يقبلون من جهة على الزرع خوفاً من ان تقضي أعوام الصقيع على الماشية او ينقض عليها غزو بنهبها او مرض يهلكها ، ويظنون متعلقين بأهداب الضرع اما لصغر مساحة الأرض التي يملكونها او لكثرة ما يفتاب الزرع من الآفات كالجراد والمحل وغيث البادية وغير ذلك ، ولأنهم لم يتجربوا بعد عن أطوار البداوة وهوى الحل والترحال . وهم بعد ان ينتهوا من بذر الزرع الشتوية يرحلون في أواخر الخريف الى البادية اتجاهاً لرعى غنمهم ودفئهم ويعودون في أواخر الربيع الى منازلهم وضياعهم ليلحقوا اعمال الحصاد والرجاد والدراس للزرع الشتوية والبذر والري والنهد للزرع الصيفية . وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر او قباب اللبن في أنحاء حلب او السبايط المبنية من أعواد الطرفاء وأغصان عرق السوس في أنحاء سقي الفرات والخابور وغيرهما من انهار الجزيرة . وليس للتقسيم المذكور حد محدود ، فالعشيرة الواحدة قد تكون من القسم الاول او الثاني وحدهما او من القسمين كليهما .

وسبب تسمية اهل هذه الطبقة بعربان الديرة لأنهم مرتبطون بديار خاصة في أطراف الحاضرة ومستقرون ولاسيما اهل القسم الثاني فيها ، ولأنهم حينما يظعنون في الشتاء لا يوغلون في البادية أكثر من ٣٠٠ — ٤٠٠ كيلومتر مراعاةً لمقدرة الغنم ولقرب المناهل والآبار الصالحة لورودها . فأعراب حمص وحماة مثلاً لا يعتمدون الخيبرات والقعرة « شرقي ندمر » وكثيراً ما يشتون حول جبل البلعاس وجبل العمور ، كما ان أعراب سقي الفرات يشتون حول جبل البشري ، وأعراب أنحاء دمشق يشنون في ديرة التلول وحول جبل التنف ، وأعراب الجزيرة الفراتية حول جبل عبد العزيز .

واهل هذه الطبقة يشبهون في الجملة الطبقة الاولى في طباع البداوة والجلفة والشعونة وانتهاك حرم الطبقة الثالثة وفلاحي الحاضرة عند سnoch الغفلة وضعف الدولة . ويختلفون بأنهم لا يعاملون في عرف البادية معاملة اهل الطبقة الاولى فلا يشهر عليهم الحرب ولا يحفظ لهم صحب اي لا يبارز الملتجئ اليهم ، بل لما كانوا « رعية » و « شوايا » يؤكلون

ولا يأكلون . فكان الطبقة الاولى كالدول المستقلة تمام الاستقلال من الادريين
تعامل بجميع قواعد حقوق الدول ، والطبقة الثانية كالدول المستقلة من الشرقيين يحافظ
على عهودها وتحترم ذمتها بحسب قوتها ومنعتها ، والطبقة الثالثة كالدول التي لم يصادق على
استقلالها او كالامارات المحمية . ويختلفون ايضاً بان لهم استعداداً بارزاً للتخضر فقد صار بعضهم
اهل مدر اي اصحاب قرى وضياع يقطنون فيها ويستثمرون ارضها ، ولا آخرين منهم
علائق حمة مع تجار الماشية او التجار السوقة في المدن والحوضر يشاركونهم في تربية
الغنم او زراعة الحبوب ، وهم يؤدون للدولة عدا ضريبة الأغنام العشر عن الزروع
والخراج عن الارضين .

والطبقة الثالثة ايضاً قسماً ؛ قسم يشبه اهل القسم الاول الذي ذكرناه في بحث
الطبقة الثانية بأن فيه اهل خصر ووير يربون الماشية ويقطنون بيوت الشعر ويرتزون
من مشاركة صغار السوقة في المدن او الزراع في القرى ومراكز الاقضية ويدعون
« شكارة » بتشديد الكاف على انهم يختلفون عن اولئك بأنهم لا يؤلفون عشائر ذات
شأن بل احياء صغيرة منفردة ضعيفة الحول والطول ، قليلة العدد والقوة ، وضعية الارومة
والمكنة ، وبأنهم لا يظعنون الى البادية بل ينتقلون حسب الفصول ووجود المرعى في
الهضاب والادوية الخالية والبراري والحقول البائرة الممتدة قرب منازلهم او ضمن حدودها
او حدود مواطن شركتهم . ولا يخلو قضاء من اقضية بلاد الشام في ساحلها وداخلها من
هؤلاء الاعراب الرعاة . وقسم فيه الاعراب الفلاحون « الفلايح » الذين تركوا
الحل والترحال وشن الغارات وابقوا ان العيش الثابت خير من المتقل ، وأن من يلجأ
لحى الدولة هنا بالأمن يتكفل في حمايته على نفسه وعصبته فعمروا الحرب الدائرة ،
وهجروا بيوت الشعر الا قليلا وصاروا اهل مدر اي انهم قطنوا بيوت الحجر او القباب
وتوفروا على الحرث والزرع أكثر من تربية الماشية .

من هؤلاء في شمالي الشام القاطنون في قرى « املاك الدولة » في اقضية منبج والباب
وجبل الاحص ومطخ قنسرين وسهل العمق وسهل الراج وسهل الغاب وفي أنحاء ادلب

وسرمين وكورة العلا وفي أقضية حماه وسلمية وحمص والنبك والقنيطرة والزوية وحوران
 وجبل الدروز وغوطة دمشق ومرجها ٠٠٠ من تعددت اسماءهم واتضعت أنسابهم وأحسابهم .
 وأهل هذه الطبقة أيضاً وان كانوا يغشون دائماً المدن والقرى ويشاركون أهلها ويعاشرونهم
 ويتصلون بمرافقها ومراتعها لكنهم مابرحوا محتفظين بقسم غير يسير من خصال البادية
 كالخشونة والرعونة فهم يتمسكون بالقشافة المدقعة والجهالة المطبقة ويتوانون عن
 العمل الصالح في الزرع والحراث ولا سيما في الغرس .

(ينبع)

وصفي زكريا



مخطوطات ومطبوعات

الامير جمال الدين عبد الله التنوخي

تأليف نليذه الشيخ ابي علي مرعي البستاني وآداب الشيخ الفاضل الشيخ محمد ابي هلال
تأليف الشيخ ابي علي عبد الملك بن الحاج يوسف الحلبي الشافعي
أجاد ناشر هذه الرسالة الاستاذ عجاج نزويض مترجم « حاضر العالم الاسلامي »
وغيره من الكتب النافعة بنشرها على طريقة عصرية مقبولة وبإتباعه لها بلحة تاريخية
مطولة تشتمل على ترجمة « للأمر سعيد » و « الشيخ الفاضل » وصفوة تاريخ الأمراء
آل تنوخ في لبنان من اولهم الى انقطاع سلالتهم قبل منتصف القرن الحادي عشر ووصف
امارتهم وامارة آل معن حتى نهاية الامير فخر الدين المعني الثاني الكبير .
وفي الحق ! أن الشخصيتين اللتين يدور عليهما الكتاب وهما : الأمير جمال الدين
عبد الله التنوخي دفين قرية عبيه ، والأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير دفين الآسنانة
من أهم الشخصيات التي يفاخر بها العرب والمسلمون في الدين والسياسة . فالامير السيد
كله خير وتقوى كان لأمته خير مثال يقتدي به المقتدون والامير فخر الدين كان نابغة
العرب في العصور الأخيرة بما رزقه من طبع سيامي واداري براق .
وقد أعجبني رأي الاستاذ نويهض في تحليل اخفاق الامير فخر الدين اذ قال :
(ص ٦١) : « ولو قُضِ لحكم اقطاعي ، مهما كان ضخماً مترامي الأطراف ، ان
يعيش ويبقى في العصور الأخيرة ، في وجه نظام الدولة الحديث ، في الشرق أو في الغرب ،
لكان حكم فخر الدين الثاني أولى الأحكام الاقطاعية بأن يعيش ، ولو كان مقدوراً
للبناء المشغور الذي رفعه سليل ربيعة بين الكرمل وانطاكية بدعائه وقوة يمينه ، ان
تتلاقى حنايا قناطره فتتأسك جوانبه ويشد بعضه بعضاً فيقوي على الأعاصير وترتد عنه
الصددمات خالصة ، ويرقى به صاحبه من دور الاقطاع الكبير الى الملكية الثابتة القرار ،
مع تكثيف الجيش وتقوية آلات الحرب وتنمية موارد الثروة العامة ، ونشر العلم الذي
كان ينتقل وتتمد من أوضاعه القديمة الى أوضاعه الجديدة ، لأمكن فخر الدين ان

يشيد للعرب في سورية الغربية ملكاً عربياً متيناً الجوانب وفيه اليوم ملايين من السكان .
ولكن اذا كان بنو ربيعة الاولون في الجزيرة لم يطبقوا ايوباً جد المعنيين وهو واحد منهم ،
لبأسه وكثرة غارته وإيقاعه ، وما زالوا به حتى أكرهوه على الرحيل فرحل ، انطبق الدولة
التركية العثمانية حفيد معن وهو يؤسس اماره قد تفضي الى ملك في بلاد سورية ، فيقطع
من سلطنتهم ويهدم منها لبيني له مملكة ؟ »

وقال المؤلف في تأثير الشعر في العرب وتغاليهم في روايته : « الشعر عنصر من
عناصر الغذاء في حياة الامارات الاقطاعية عند كل الامم المنحضرة ، يماشي الفروسية ،
وتنعكس عليه اهبتها ، ويكون شيئاً لطرازها ، وشده غنائها ، هذا على الجملة ، وأما
كون نزعة الشعر في الاصل جزءاً من طبيعة العربي على الخصوص ، وهي من غرائزه
النامية ، جاهلية واسلاماً ، بادية وحاضرة ، فلا يحتاج الى دلائل . قل — اذا كانت
الفروسية عند العرب ، وهي عندهم على غير انقطاع ، كان الشعر ، وكان منشده وسامعه
وراويه ، وهذا في كل الاقاليم التي سكنها العرب قديماً وحديثاً ، وكما كنا ولا نبرح
نطرب لذكر المنحني والعقيق واللوي والرياض التي قال باقوت انه كان في الجزيرة لاقول
من مئة وستة وثلاثين موضعاً يسمى بالروضة او الروضتين ، فكذلك نطرب لترنم الشعراء
بذكر المستجد من الاسماء للاماكن التي تزلها العرب بعد الفتوح في سواحل الشام
وثغور البحر الابيض وجبال بيروت ومقاطعات الغرب وجبل بني معن ، وكما يشتاقت
وصف مراتع الظباء في نجد والحجاز وأوديتهما المختلفة ، فكذلك يجتذبك ذكر صنين
وجبل الشيخ ، ووصف تساقط الثلوج عليهما ، وكما كان الشعراء يقدون على الملوك
والامراء في الجزيرة والحيرة وديار غسان قبل الاسلام فكذلك نراهم عند التنوخيين اللخمين
في لبنان . وسنظل نقرأ الشعر العربي اينما كان العرب ونزلوا ، وفي اي جبل او سهل حلوا . »
وفي بعض هذه الرسائل القديمة كتبت الصاد بالسين على عادة القوم في كتبهم
الروحية فرد عليها المؤلف رداً لطيفاً بقوله : « وردت كلمة « الصادق » و « التصديق »
في سيرة الامير السيد بالسين بدل الصاد احياناً . وصوابها بالصاد ، ولم يرد في العربية
فعل (صدق) بالسين . » والمأمول مع الزمن ان تزول السين من هذا الرسم وتبقى
الصاد ليتوحد الاملاء كما تتوحد الآراء .

محمد كرد علي

تذكرة الشعراء

او

شعراء بغداد وكتابتها في أيام داود باشا والي بغداد

لعبد القادر الخطيبي الشهباني

في هذا الكتاب تراجم مختصرة لثلاثة وخمسين رجلاً (ليس فيهم شاعر يذكر) من أهل النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة في بغداد . عني بنشره ووضع فهارسه العلامة اللغوي الاب انساس ماري الكرمل . والكتاب = على ما فيه من لغة رديئة وأسلوب عامي وخطة مضطربة = يصور لنا نموذجاً من ثقافة ذلك العصر . ولذلك تولى الاستاذ الكرمل نشره كما هو وأضاف اليه فهارس ومجما للألفاظ العامة والأعجمية مع خاتمة دلت بها على فائدة الكتاب .

مرآة الباحثين في تاريخ علوم العراق

مرآة مسعود

هي مجموعة الكلمات والقوائد التي ألفت في حفلة تأبين محمد مسعود بك احد اعلام النهضة الأدبية في مصر . كان عالماً مدققاً واديباً كبيراً وصحافياً مفنناً ومؤلفاً موفقاً معروفاً بحسن الخلق والاستقامة . وقد تولى الذين ابنوه شرح هذه النواحي ونوهوا بكارم اخلاقه وعظيم مآثره رحمه الله واحسن عزاء الامة .

آراء وأنباء

استدراك

أشير هنا - مستدركاً سهواً في ص ٣٧٥ سطر ٧ من المجلد السادس عشر لهذه المجلة - الى ان كلمة (شعوذة) صحيحة فصيحة مثل (شعبذة) ٠ وأن سنة ٢٩٢ (ص ٣٣٥ سطر ١٧) صوابها : ٢٩٢

الافتقاني



فقدت الامة ثلاثة من أعلام العلماء العاملين : الشيخ محمد الحسيني صاحب التفسير والشيخ اسماعيل الحافظ مصحح الجامع الصحيح لمسلم ، وهما من علماء طرابلس الشام . اما الثالث فالشيخ عبد الوهاب النجار من علماء مصر وصاحب كتاب قصص الانبياء وغيره . رحمهم الله رحمة واسعة وعزى الفضائل والعلوم فيهم .